سقوط الباستيل

اسكندر ديماس

القصص العالمية للجميع



الثورة الحمراء

الثورة الحمراء

أو
سقوط الباستيل

تأليف
الروائي الأشهر
اسكندر دوماس الكبير

المكتبة الحديثة للطباعة والنشر
بيروت - شارع سوريا - تلفون: ٢٣١١٦٨
ص.ب ٢٥٦٤ - ١١

شخصيات الرواية

بيتو : غلام ريفي فقير يربيه الدكتور جيلبير بعد وفاة امه المسكينة .
بيو : مزارع فرنسي غير مثقف ولكنه من أشد انصار الحرية .
جيلبير : طبيب وفيلسوف ومجاهد من أبطال الثورة وحرب استقلال امريكا
لويس السادس عشر : ملك فرنسا .
ماري انطوانيت : ملكة فرنسا .
كاترين : ابنة المزارع بيو ، يحبها بيتو .
انجيليك : خالة بيتو ، عجوز بخيلة .
الاب فورتييه : قسيس ومعلم متعنت ، فشل في تعليم بيتو وطرده .
المركيز لافاييت : القائد العام للحرس الوطني .
البارون دي نكار : وزير فرنسي يحبه الفرنسيون ، اقاله الملك لويس السادس عشر ، وغضب الفرنسيون لاقالته .
البارونة دي ستايل : ابنة دي نكار الوزير الفرنسي .
دوق اورليان : كان يرى فيه الاحرار رسولا من رسل الحرية ومبشرا من كبار المبشرين بالانسانية .
كاميل ديمولان : شاب متحمس قاد مظاهرة باريس ، وسجل اسمه في التاريخ .
مسيو دي فليسيل : عمدة باريس وشيخ تجارها ، ورئيس مجلس بلديتها.

مسيو دي بايي : رئيس الجمعية الوطنية في فرساي .

مسيو دي دروبريزيه : مدير التشريفات بالقصر الملكي .

مسيو دي لوناي : حاكم ومدير سجن الباستيل في الخامسة والاربعين ، وهو رجل شرير مكروه ، وقد توارث آل دي لوناي ادارة الباستيل.

الدكتور مارا : طبيب من الاحرار وزعيم من زعماء الشعب .

الكونتس دي شارني : اسمها اندريه وهي وصيفة الملكة ماري انطوانيت ، وكانت صديقة للدكتور جيلبير في شبابه الاول ثم صارت عدوة له.

مايار : زعيم من زعماء الشعب واحد قادة الحرس الوطني وقد قاد مظاهرة النساء في الزحف الى باريس .

مادلين شمبري : بائعة الزهور الحسناء التي اثارت نساء باريس والفت منهن عشرة آلاف في مظاهرة الجوع والزحف الى فرساي .

القلعة الملكية

هناك في قلب فرنسا وفي مدينة «فييه ـ كوتريه» الصغيرة وفي ظلال غابة ملتفة الاشجار ، تقوم قلعة ملكية باذخة ، ولد على مقربة منها اكبر شعراء فرنسا «راسين» .. وغير بعيد منها ولد شاعرها العظيم ، رب الاساطير «لافونتين» ..

وقد بدأ بنيان هذه القلعة فرنسوا الاول ، ثم أتمها من بعده هنري الثاني .. وقد شهدت غرام أكثر من ملك بعشيقاتهم الحسناوات . وكان آخر عهدها بالغرام ان كانت وكر «لويس فيليب أورليان» ومدام دي مونتسون .. فلما مات ذلك الامير الملكي ، وخلفه ولده «فيليب اورليان» الذي عرف في التاريخ بعدئذ باسم «فيليب المساواة» ، انزل تلك القلعة من مقر ملكي الى «استراحة صيد» .

وفي هذا الوقت الذي تبدأ فيه قصتنا لم يكن يقيم في القلعة ربها الامير ، فهي خالية من السكان فيما عدا النفر القلائل من الخدم الذين لا غنى عنهم لصيانة المكان واعداده لنزول صاحبه بين الحين والحين . ومن بين هؤلاء الخدم حارس الباب ، والموكل بملعب التنس وناظر القصر .. لهذا كانت نوافذ واجهة القلعة جميعها مغلقة على الدوام ، فزاد ذلك في وحشة الميدان الواسع الذي تطل عليه ، وهو ميدان المدينة الرئيسي .

وفي بعض اطراف ذلك الميدان يقوم بيت صغير يطل ظهره على الميدان وتطل واجهته على شارع سواسون ، ولمدخله بوابة كبيرة كئيبة المنظر ، تظل مغلقة ثماني عشرة ساعة في اليوم لحسن الحظ .

اما الجهة الخلفية المطلة على الميدان فمشرقة باسمة ، ذات حديقة يانعة الشجر والثمر ، تطل اغصانها محملة بفاكتها من الكمثري والخوخ والتفاح من فوق جدار الحديقة . وعلى جانبي باب تلك الحديقة شجرتان

باسقتان معمرتان ، تحملان في أوان الربيع من الزهر المونـــق ما ينتشر اريجه في المكان ، وينفذ من الشبابيك والكوى تحية من أمنا الارض الـى سكان الدار :

وكانت هذه الدار اللطيفة مسكن قسيس بيعة القلعة ، الذي كان يصر رغم غيبة ربها الامير على اقامة الصلاة فيها صباح كل احد بلا انقطاع . وله معاش صغير ، واشراف مطلق على بعثتين دراسيتين ، فمن حقه أن يبعث في كل سنة طالبا الى كلية «بليسي» وطالبا آخر الى دير سواسون ، وذلك ــ كما هو غني عن البيان ــ على نفقة آل أورليان .. فكانت هاتان البعثتان مطمح انظار كل والد في المدينة ، كما كانتا سبب نكد كل طالب فيها ، لمـا تكلفانه من دراسة واجتهاد وامتحانات تقدم كل يوم ثلاثاء لينظـر فيهـــا القسيس ويقدر لها الدرجات .

***

وفي ذات ثلاثاء من شهر يوليه سنة ١٧٨٩ ، وكان يومـا عبوســـا قمطريرا ساده صمت موحش ، وقد دقت ساعة البـرج الحادية عشرة ، فتح باب الحديقة وانطلق من داخلها جماعة من الغلمان مهللين ، فمـلأوا الميدان ، وراحوا يلعبون فيه ألعابهم الصبيانية ، في ضجة عالية .

أما أهل الجد والاجتهاد من هؤلاء الصغار ، فلم يندمجوا في اللعب مع اولئك المناكيد الممزقة ثيابهم ، المعفرة جباههم ، بل انسلخوا مبتعدين في وقار وسكينة ، ميممين شطر بيوت اهليهم ، حيث تنتظرهم شطائر الخبز والجبن أو الفاكهة المقددة والمربى .

وثمة فريق ثالث من التلاميذ ، لا هم من أهل اللهو ، ولا من أهل الجد والاستقامة . وانما هم الكسالى الذين لم يحفظوا دروسهم ، ولم يـؤدوا واجبهم ، فحبسهم معلمهم ليؤدوها في وقت فسحة اخوانــهم ولهوهـــم وطعامــهم .

فاذا ما توغلنا قليلا في مماشي الحديقة ، وجدنا فنـــاء صغـــيرا ، وسمعنا من هذا الفناء صوتا أجش ينبعث مناعلى الدرج المفضي الى البناء، موجها الكلام الى فتى من الكسالى كان يهبط ذلك الدرج ، وهو يحـــرك كتفيه حركة لا تصدر الا عن حمار يريد التخلص من راكب ثقيل ، أو عـــن طالب بليد يريد التخفف من وقع الجلدة التي لسعت قفاه !

وكان الصوت الاجش الزاجر لا يزال يلاحق هذا الفتى قائلا :

ـ ايها الكافر ! ايها الخارج من رحمة الله ! ايها المحروم من نعمة الرب ! ايها الوغد ايها الثعبان المرقط ! اخرج من هنا يا ملعون ! لقد تحملتك صابرا ثلاث سنين ، ولكن امثالك يستنفدون صبر الاله .. اما الآن فقد انتهى كل شيء.. خذ الآن الاعيبك كلها خذ ضفادعك، وسحالاك، ودود قزك، وجنادبك، واذهب الى خالتك ، أو الى خالك ان كان لك خال، أو الى الشيطان ان شئت ، ولا تدع نظري يقع عليك أو على سحنتك المقلوبة بعد الآن .. اخرج يا ملعون خارجا !

فأجابه صوت الفتى الصغير ، ضارعا متوسلا :

ـ ايها السيد «فورتييه» الطيب ، رحماك ! هل تستحق كل هذه الثورة بضعة اخطاء في التعبير لا هنا ولا هناك ؟

ـ عشرة اخطاء يا هذا في خمسة وعشرين سطرا ..

ـ لست انكر هذا يا سيدي ، فيوم الثلاثاء كان على الدوام يوم نحسي وتعسي ! فهلا غفرت لي اخطائي هذا اليوم يا سيدي الاب الكاهن ؟

ـ ايها المنكود ! لقد كررت هذا على سمعي كل يوم اختبار من كل اسبوع هذه السنوات الثلاث حتى أسامتني .. والامتحان الاخير موعده اول نوفمبر .. وقد حملتني توسلات خالتك «انجيليكا» على أن اكتب اسمك بين المتقدمين لبعثة دير سواسون . وستعرضني ايها المأفون للسخرية والزراية ، فيقال في كل مكان أن تلميذي «بيتو» جحش ، بل حمار ..

واستطرد الفتى المسكين يتوسل للاب «فورتييه» أن يغفر له اخطاء التعبير ، وركاكة الاسلوب ، والاب فورتييه يزداد تعنيفا له ويصر على التخلص منه والبراءة من نسبته اليه . وأخيرا قال الفتى بعد اخذ ورد طويلين :

ـ لقد كنت دائما مثال الطيبة معي ، ويكفي أن تذكرني بالخير عند سيدنا الاسقف حتى انال البعثة المطلوبة يا سيدي الاب !

ـ اتريدني على أن اغش ضميري واغير ذمتي يا هذا ؟ !

ـ اذا كان هدفك فعل الخير ، فان الله الرحيم يعفو عن كثير .

ـ مستحيل ! مستحيل !

ـ وهل نسيت يا سيدي الاب أن الممتحنين قد لا يكونون أكثر تشددا ممن امتحنوا خالي من قبل ، هو «سباستيان جلبرت» ، وكان أسلوبه اضعف الاساليب ، فأجازوه لبعثة باريس ، مع انه في الثالثة عشرة ، أما انا ففي السابعة عشرة ؟..

ـ ايها الغبي ، المثلث الغباء ! لانه كان حديث السن تساهلوا معه ، لان حداثته تشفع له في ضعفه ، وتوحي بالامل في اصلاحه ، اما انت أيها الاحمق ...

ـ نعم نعم.. ولا تنس انه ايضا نجل المسيو «اونوريه جلبرت» الواسع الثراء .. الذي يبلغ دخله السنوي ثمانية عشر الفا ! ولو كنت نجل وجيه له هذا الثراء اذن ..

ـ آه ! هذا كلام اقل دلالة على الغباء مما اتفق لك من قبل ، ولكنها فرية لا أساس لها . ومع هذا فيخيل الي أحيانا انك لست من الغباء بحيث اظن ...

ـ هلا عفوت عني هذه المرة ايها الاب ؟

ـ هذه المرة فقط .. ولتكن الاخيرة ..

فصرخ الغلام متهللا :

ـ شكرا .. شكرا لك ايها الاب المحبوب ! ..

ـ مهلا ولا تتعجل بالشكر والامتنان ، فاني اعفو عنك بشرط ان تجيب على سؤال واحد سأوجهه اليك الآن ..

ـ باللاتينية ؟

ـ أجل !

فتنهد المسكين واذعن ، وكان السؤال صعبا فلم يفقه معنى كلماته ، فانهال عليه الاب بالسباب ، وأعلنه بانقطاع آماله في البعثة بعد اليوم .. فقال الفتى :

ـ وخالتي يا سيدي الاب ، التي تظنني قد غدوت قسيسا صالحا ؟

فلتعلم اذن انك لا تصلح حتى خادما للكنيسة يصنع القربان ويكنس المكان ! اخرج من هنا الى الابد ! وخذ قمطرك معك !

ولم يجد المسكين بدا من حمل درجه على راسه ، والخروج به مطرودا من المدرسة ، وقد اقفل في وجهه باب المستقبل السعيد ، الذي ارادته له خالته .. عائدا الى دار تلك الخالة .

***

وها نحن أولاء قد عرفنا «آنج بيتو» ، ولا بد الآن من كلمة نعرف بها خالته وأسرته ونتعرف فيها ايضا الى شخصه وخلقته ..

***

فتى يتيم

كان لويس آنج بيتو في هذا الوقت قد تجاوز السابعة عشرة من عمره ببضعة أشهر . وكان فتى طويلا ، نحيلا ، اصفر الشعر ، احمر الخد ، ازرق العينين . وعلى شفتيه الواسعتين نضرة الشباب وحيويته ، وبراءته واضحة ، فاذا انفرجت شفتاه الغليظتان تكشفتا عن اسنان قوية ناصعة البياض . وله ذراعان طويلان في نهايتهما يدان قويتان ، وساقان فيهما التواء خفيف فيهما ركبتان ضخمتان كأنهما راسا طفلين ! وقدمان كبيرتان جدا في حذاء ذهب طول الاستعمال بلونه الاصلي . واما هندامه فخليط من ملابس الصبية وزي رجال العصر .

وقد ماتت أمه وهو في الثانية عشرة، تلك الام التي طالما دللت وحيدها اما أبوه فمات قبل ذلك ، والفتى لا يزال طفلا لا يعي .. فكانت امه تترك له الحبل على الغارب ، فأجدى ذلك على صحته وبنيته كثيرا ، ولكنه جنى على تقدمه ونموه العقلي .

وقد ولد بيتو في قرية «آرامون» الواقعة على مسافة فرسخ واحد من المدينة ، وفي أحضان غابة .. فكان اول خطوة في تلك الغابة، واول ميدان لذكائه في رحابها ، شأنا الحرب على ما فيها من حيوان وطير .. حتى صار من امهر قناصي الطيور وهو في العاشرة من عمره دون تعليم أو ارشاد ، اللهم الا من وحي سليقته الفطرية . ولم يكن يضارعه أحد في تسلق الاشجار العالية حتى القمة ، بسرعة ومهارة ، فلو كان من سكان غابات خط الاستواء لاقرت له القردة والنسانيس بالتفوق في ذلك المضمار !

وظل الامر على ذلك المنوال الى أن مرضت امه واحست قرب اجلها ، وانها توشك أن تترك ولدها وحيدا في العالم ، لا سند له ولا كافل ولا قريب ، فراحت تفكر جاهدة في شخص يحل محلها بعض الشيء في رعاية هذا الولد الذي شب على الفطرة ، لا يعرف شيئا من اساليب الحضارة او العلم .

وتذكرت عندئذ شابا طرق بابها منذ عشر سنين في جوف الليل البهيم ، حاملا بين ذراعيه طفلا حديث عهد بالولادة ، كي يدعه بين يديها ترعاه رعاية الام : وأعطاها مبلغا لا يستهان به أجرا لها على ذلك ، ولكنه خصص مبلغا اكبر من ذلك لمصالح الطفل ، وقد جعله وديعة لدى موثق عقود معروف في بلدة «فييه كوتريه» القريبة من القرية .

ولم تعرف الام عن ذلك الشاب سوى أن اسمه «جيلبير» ، ثم ظهر لها بعد سبع سنوات ، أي قبل مرضها الاخير بثلاث سنوات ، وقد صار في نحو الثامنة والعشرين من عمره . جاف اللهجة ، متحفظا ، بيد أن هذا كله تلاشى حين جيء اليه بالصبي في أوج الصحة ، وقد تربى كما أمر ، على الفطرة ، قويا ، ساذجا ، بوحي سجيته بلا توجيه أو تلقين ، فضغط «جيلبير» على كف المرأة شاكرا وقال لها :

ـ اعتمدي علي في وقت الشدة . .

ثم أخذ الصبي الى بلدة «ارمينون فيل» حيث حجا الى قبر جان جاك روسو مؤلف «اميل» ، وعادا بعد ذلك الى بلدة «فييه كوتريه» حيث استهواه ولا شك جمال الموقع واعتدال الهواء ، عدا ما سمعه من موثق العقود من ثناء على مدرسة الاب «فورتييه» ، فترك ابنه الصغير جيلبير بين يدي ذلك الرجل الهمام الذي استهواه منه مظهره الفلسفي ، ذلك المظهر الذي كان في ذلك العصر واسع الانتشار حتى بين اضرابه من رجال الكنيسة . .

فلما انتهى جيلبير الكبير من ذلك رحل وحده الى باريس ، بعد أن ترك عنوانه ، لدى الاب «فورتييه» .

ذلك كله طاف بذهن والدة بيتو وهي على فراش مرضها الاخير ، ولاسيما عبارة المسيو جيلبير الكبير :

ـ اعتمدي علي في وقت الشدة .

فكان ذلك بمثابة شعاع من النور بدد الظلمات الحالكة التي كانت تراها محيطة بمستقبل وحيدها ومصيره . فأرسلت الى قسيس القرية كي يكتب لها خطابا الى الاب فورتييه ، لانها كانت امية لا تعرف شيئا من القراءة أو الكتابة ، وبعد يوم واحد جاء عنوان المسيو جيلبير في باريس ، فأرسلت اليه خطابا بفحوى الحال .

وكان ذلك في الواقع تصرفا جاء في وقته لان المرأة المسكينة ماتت بعد ارسال الخطاب بيومين اثنين ، والواقع أن بيتو كان صغيرا جدا ، فلم يدرك مدى الخسارة التي لحقت به ، فبكى والدته لا عن فهم لما حل بينهما من فراق أبدي ، بل لانه رآها باردة كالثلج ، شاحبة اللون ، متغيرة السحنة . وكان أيضا لا يدري بعد تلك الام كيف يعيش يوما واحدا بدون كفالتها ورعايتها . لذلك تبع تابوتها باكيا الى فناء الكنيسة ، حتى اذا حان أن يودع باطن الارض انكفأ فوقه معولا ، ثم استقر فوق غطائه جالسا ، وكان يجيب على كل دعوة توجه اليه من المشيعين أن ينهض ويمضي معهم بهز رأسه سلبا ، ثم يقول :

ــ اني لم افارق أمي ابدا ، وسأبقى دائما حيث بقيت .

وعلى هذه الصورة وجده الدكتور جيلبير ــ فان كافله منذ اليوم كان طبيبا من اغنى اطباء باريس ، وما وصله خطاب الام مبينا له مدى ما ألقي على عاتقه بسبب وعده القديم ، حتى أسرع من فوره ليفي بذلك الوعد بالغا ما بلغ . فوصل الى القرية بعد ثمان وأربعين ساعة من وصــول الخطاب اليـــه .

وكان بيتو قد سمع من والدته كثيرا اسم الطبيب مقرونـا بالثنــاء والاعجاب ، وكان يسيرا على الطبيب ان يؤثر في الغلام الصغير فينقاد له ، فاخذه الطبيب من يده واركبه عربة كانت تنتظره بباب الكنيسة ، ومضى به الى بلدة فيبه كوتريه فأنزله معه في افخم خاناتها ، وذهب به الى أحسن الخياطين فكساه ، متوخيا ان تكون الملابس اطول منه واكبر حتى تتسـع لنموه السريع ، ثم صحبه بعدِ ذلك الى ذلك الحي الذي كتب عليه ان يبقى فيه بعد ذلك تحت رعاية خالته انجيليك .

والواقع انه لم يكن في هذه الخالة انجيليك ما يجذب اليها غلاما على غرار بيتو نشأ وحيد ام تدلله ارق التدليل واحناه . فهي عانس نيفت على الخامسة والخمسين من العمر ، في وجهها ذبول من اثر العبادة والسجود المتصل . وهي من ذلك النوع من النساء الذي يقترن الزهد عنده والعبادة بالتعصب والقســوة ونضوج الشعور الانساني والافــراط في النظافـة والتقتير .

وقد دخل عليها الدكتور جيلبير وهي جالسة في ذلك المقعـد ، وفي يده بيتو الكبير ، ونقول الكبير لا الصغير ، لان الغلام كان منذ نعومة اظفاره بائن الطول . فما ان رأته انجيليك حتى احتضنته وقبلته مترحمة عـــلى اختها المرحومة ، معددة مناقبها وكيف انها عزت عليها كثـيرا . فانتهــز الدكتور هذه الفرصة ليمتحن المرأة فالقى موعظة قصــيرة في واجبـــات الخالات نحو أبناء اخواتهن اليتامى الفقراء ، فاذا بالدمعة التــي كانت في جانب عين العانس قد جفت ، ثم بادرت الطبيب بمجرد انتهائه من موعظته بأن مواردها لا تسمح لها مطلقا مهما كان حبها لاختها المرحومة وابن أختها اليتيم بالانفاق عليه ، لانها هي شخصيا فقيرة تقتات من فيض اكف الناس.

وكان الطبيب لا يريد كما قلنا سوى امتحانها ، لهذا كان مستعـــدا لسماع جواب الرفض ، وراح يصغي بصبر ولذة الى مرافعة العانس .

ــ انه سيزيد نفقاتي ستة سنتيمات في اليوم على الاقل ، فهذا الغلام الكبير ياكل على الاقل رطلا من الخبز في اليوم . بخلاف الصابون لغسل

ملابسه ، يضاف الى ذلك ثمن ما يلزمه من الملابس نفسها .
ـ هل افهم من ذلك انك ترفضين كفالة ابن اختك ؟

فشعرت انجيليك بالمأزق ، وبان سمعتها في الورع والتقوى ستكون مهددة في البلدة، كما لم يفتها ان كفالة هذا اليتيم ستزيد من تلك الشهرة، وتزيد من سخاء الناس في التصدق عليها . لهذا إجابت بعد اطراق :

ـ بل سأتكفل به ، ولكني اخشى أن اتضور واياه جوعا . ولعلني اوفق الى الحاقه ببعض الاديرة خادما باللقمة .

ـ ما دمت في هذا الضيق الشديد حقا يا آنستي العزيزة ، فلا بأس من ان أبحث عن شخص آخر يتكفل بالغلام في نظير المبلغ الذي خصصته لذلك . فإني مضطر للسفر الى أمريكا .

فكان لكلمة «المبلغ» تاثير السحر في الخالة انجيليك ، اذ طوقت الغلام بذراعيها وراحت تغمره بفيض من القبلات وقالت :

ـ لا تنس يا سيدي أنك لن تجد في العالم كله شخصا يحب ابن اختي كما احبه أنا فاذا كنت حقا يا سيدي ستخصص له مبلغا لقضاء حوائجه ..

ـ ساخصص له ذلك المبلغ ولكن بشرط واحد : ان يتعلم مهنة .

ـ واقسم لك بايماني انه سيتعلم مهنة .

ليكن اذن . ولكن لا يكفيني القسم ، بل يجب ان توقعي تعهدا امام موثق العقود .

ـ اوقع يا سيدي ما شئت أمام من شئت .

وهكذا توجهت الخالة انجيليك مع الطبيب الى مكتب موثق العقود الاستاذ «نيجيه» ووقعت تعهدا بتعليم الفتى مهنة شريفة واطعامه والتكفل به نظير مائتي فرنك تقبضها سنويا من الموثق . وكانت مدة هذا التعاقد خمس سنوات . فدفع لها الطبيب السنة الاولى مقدما ، ثم اودع الثمانمائة فرنك لدى الموثق .

وفي اليوم التالي غادر الطبيب بلدة فيبه كوتريه بعد ان سوى بعض الحسابات مع فلاحيه .

***

بين الرهينة والحب

لم تكن صيغة العقد تنص على حرفة معينة يوجه اليها الفتى ، لهذا

تخيرت الخالة متعللة بصغر سن ابن اختها ان تكون المهنة الشريفة المنصوص عليها في العقد هي العلم والاعداد للرهبانية او الكهنوت .

وطبيعي ان بيتو حاول في بيئته الجديدة ان يستمر في العابه وحياته الفطرية الطليقة التي الفها في بيت والدته . وكان صعب المراس عنيداً ، وكان ايضا لا يخلو من مكر فطري ، فصح ما رتبه في ذهنه من جشع خالته وغفرانها لعبثه بثمن من الطيور الكثيرة التي كان يصطادها ، ويأتيها بها آخر اليوم . فراحت تشجعه على صيد الطيور والارانب البرية ، حيث يأكلان اللحم ويبيعان الريش والجلود .

ولم تنس الخالة انجيليك في صلاتها أن تشكر الرب ، مرددة ان لا يضيع اجر المحسنين ، فقد كان جزاء احسانها الى ابن اختها ان وجدت فيه مصدرا للرزّق والتجارة الرابحة الى ما تحظى به من الطعام الجيد !

ولم تنس الخالة الورعة ايضا ان تستخدم تكتيكا بارعا ، فكانت تهدي القسيس الاب فورتييه بعض الارانب والطيور التي يصطادها بيتو ، فكان الاب يذكرها بالخير لدى المحسنين من رعاياه ، فتزيد بذلك ارباحها من كل جهة .

وهكذا بدا بيتو عند خالته حياة شبيهة بحياته في مسقط راسه . واستمرت الحال على هذا النحو ثلاثة اشهر او اربعة ، الى ان وصل خطاب من الدكتور جيلبير من مدينة نيويورك ، يستفهم من الموثق نيجيه عن مدى تنفيذ شروط العقد ، فذهب الموثق الى منزل الخالة ، فاحسنت استقباله واستمهلته ثمانية ايام ريثما تفكر وتحزم أمرها .

وكان الشتاء قد اقبل فلم يعد هناك مجل للصيد والقنص . فاهتدت الخالة في هذه المهلة الى الحل الموفق السعيد، وهو أن تحمل الاب فورتييه على تعليم بيتو واعداده للفوز بالبعثة التي خصصها دوق اورليان لطالب في كل سنة يدرس في الدير الكبير . فهي مهنة شريفة ، وهي في الوقت نفسه لا تكلف شيئا من المال على الاطلاق . وخاصة أن الوقت سيتسع لبيتو بعد الظهر وفي الليل وفي الفجر لصيد الارانب والطيور بفخاخه ووسائله الاخرى .

وهكذا صار بيتو تلميذا في معهد الاب فورتييه المحترم . وكان هذا الاب رجلا فاضلا كريم النفس يجود على الفقراء في الروح ، ويجود بماله على الفقراء في المادة ، ولم يكن يعيبه الا شيء واحد هو أن الركاكة وسوء التعبير جريمة لا تغتفر اذا تعلق الامر باللغة اللاتينية . وكلما اخطا تلميذ من تلاميذه خطأ من هذا القبيل ، امتدت اليه يد الاستاذ طويلة شديدة

الوطأة ، ولهذا كان فورتيبيه يتصوره الناس دائما في صورة سيده ومولاه الراعي الاعظم ، فاتحا ذراعيه للصغار قائلا :

ــ دعوا هؤلاء الصغار يأتوا الي !

ولكن مع فارق واحد : أن السيد المسيح كان يفتح ذراعيه في حنان وعطف ، أما الاب فورتيبيه فكان يفتحهما مليئتين ، يمناه بفلقة ، ويسراه بسوط له شعب !

وتوالت الايام على بيتو في معهد الاب المحترم ، لائذا بالصمت اثناء الدرس ، قليل الاستعداد لهضم ما يتلقاه من المعلومات أو استذكارها فلما عقد الامتحان الاول بعد اسبوع ، ثم الامتحان الثاني والثالث رسخ لدى الاب فورتيبيه اعتقاد جازم بأن آتج بيتو لا يمكن أن يغدو يوما ما من مفاخر الرهبانية المستنيرة .

يضاف الى هذا أن اختلاف المعدن بين بيتو وسائر الاولاد في المدرسة كان سببا في عداوة جماعة منهم له بغير سبب أو مبرر ، فهو لم يقترف في حق أحدهم اساءة ، فاضطر اخيرا ان يلجأ الى المقاتلة للتغلب على هؤلاء الاعداء واخضاعهم ، فأنذرهم ذات يوم انه على استعداد لمبارزة شتتهم واحدا بعد واحد ، فأثار هذا التحدي جميع تلاميذ الفصل ، وسرعان ما وقف الجميع حلقة حول ميدان المبارزة ، واصطف الفريق السداسي ثم تقدم أولهم فخلع سترته وانبرى لبيتو .

وكانت لبيتو يدان كبيرتان لا تسران الناظر ، وهما للامس اقل سرورا، فما اطبقتا على شيء وافلت منهما سليما .

وكان يتحرى بيتو أن يكيل اللكمات لعين الخصم حتى تتورم ولا يقدر على متابعة القتال وهكذا انسحب المبارز الاول بعد دقيقتين وقد رسم بيتو بيده حول عينه دائرة لا يستطيع ابرع المهندسين أن يرسم ما هو اكمل منها استدارة ودقة ، وبمداد اسود قاتم السواد ، فحل محله منازل آخر كان اقل من الاول قوة وبأسا ، فلم تدم المعركة طويلا لان بيتو وجه لكمته الاولى بكل قوته الى انف ذلك الخصم الجديد . فسرعان ما تدفقت الدماء من خياشيمه في جدول مزدوج !.

وأما الخصم الثالث فلم يخرج من المعركة الا بلكمة أطارت احد اضراسه !.

وكان ذلك فصل الخطاب . فقد أعلن الثلاثة الباقون انضمامهم لزملائهم السابقين مكتفين بجهودهم في اثبات بطولة آتج بيتو : وانسحب بيتو مزهوا الى بيت خالته .

وفي الصباح التالي ذهب المغلوبون الثلاثة الى المدرسة تحمل وجوههم آثار الهزيمة ، فأجرى الاب فورتييه تحقيقا انتهى بوصوله الى الحقيقة . ولما كان الاب فورتييه مسئولا عن تلاميذه في المدرسة أمام أولياء امورهم، فقد عاقبه بالحبس في فسحة الغداء ثلاثة أيام متوالية ، يوما للدائرة التي رسمها حول عين زميله الاول ، ويوما للتورم الذي اصاب انف الزميل الثاني ويوما ثالثا للضرس الذي فقده زميله الثالث .

وقد كان لذلك الحبس أثر حاسم ، اذ فتح عيني الآنسة انجيليك الى فكرة عبقرية مؤداها ان تحرمه من وجبة الغداء كلما عاقبه الاب فورتييه بالحبس في فسحة بعد الظهر . فكان ذلك سببا في تحري بيتو الحذر والدقة حتى لا يرتكب خطأ يدفع له ذلك الثمن الفاحش .

بيد أن ذلك لم يفلح في تغيير شيء واحد ظل على حاله في حياة الطالب بيتو ، وهو فشله في اجادة الكتابة باللغة اللاتينية ، وهي لغة العلم الوحيدة لذلك الزمان .

وكان بيتو يقضي أيام الآحاد في الحقول والبراري باحثا عن الحيوانات الغريبة النادرة والحشرات ودودة القز .

وفي بعض جولاته اكتشف مزرعة الاب بيو ، ومن المصادفات انه مر بباب بيته فوجد فتاة مليحة في نحو السابعة عشرة من عمرها ، نادرة الحسن ، دافقة الحيوية ، رشيقة ، ضاحكة السن مرحة ، وكان اسمها كاترين بيو .

وقد بدأ بيتو صلته بها بالانحناء في غدوه ورواحه من أمامها ، واخيرا تجاسر ذات مرة بعد أن انحنى ، فابتسم لها وقال في تلعثم :

ـ طاب يومك يا آنسة .

وكانت كاترين فتاة طيبة القلب الوفا . فرحبت بالفتى كأنه صديق قديم . والواقع أنه كان كذلك فقد سلخ الاعوام الثلاثة الاخيرة يمر من أمامها مرة كل اسبوع على الاقل . وكانت هي أكبر منه بنحو عام ، فكان تأثيرها عليه قويا .

وقد عرفت كاترين لبيتو قدره ومواهبه عن طريق ما كان يقدمه اليها من صفوة صيده من الطيور الجميلة والارانب السمينة . ولكن كان لذلك الانعطاف على بيتو اثر عكسي في نفسه وفي سلوكه ، فبدلا من أن يمر بالبيت مر الكرام الى حيث ينصب فخاخه وشراكه ويقضي يومه متربصا بفرائسه ، صار يقضي اليوم متسكعا حول بيت الاب بيو عساه يحظى بلمحة منها ولو عابرة ، فهبطت حصيلته من جلود الارانب ، وهبط ايراد

الخالة انجيليك فاحزنها ذلك كثيرا ، وعلل لها بيتو المسالـــة بأن الارانب والطيور صارت في الايام الاخيرة شديدة المكر والحذر ، فكانت الخالـــة انجيليك تعزي نفسها بأن ابن أختها سيغدو عما قريب راهبا ثم قسيســـا وستتولى هي ادارة بيته جزاء برها به وكانت تلك امنيتهـا الكبـــرى في اخريات العمر .

ولكن هذه الامنية ذهبت هباء حين استدعاها الاب فورتيبه وأكد لهـا ان ابن أختها ميئوس من فلاحه وفوزه بالبعثة المنشودة الى الدير ، لانـه لا يحسن الكتابة باللغة اللاتينية على الاطلاق .

وبعد يومين طرده الاب فورتيبه من مدرسته ، واخذ بيتو طريقه الـى بيت خالته منكس الراس مضعضع الحواس من اثر الصدمة المحطمة ، فهو لا يدري كيف يواجه مستقبله ، بل هو مشفق اكثر من هذا كله كيف يلقى ويواجه خالته انجيليك ، فقطع المسافة التي لا تزيد على ثلاثمائة متر في نحو نصف ساعة متسكعا يبحث عن مخرج من الورطة التي القى نفسه فيها

واخيرا هداه التفكير الى حل وقتي ، فدخل البيت وبادرها بقوله :

ــ اني مريض يا خالتي انجيليك .

فقد وجد هذه الطريقة هي المنفذ الوحيد له من غضب خالته عليـه ، فاجابته الخالة .

ــ أعرف مرضك ايها الخبيث . انه ، الشوق الى الرغيف .

ــ كلا والله فلست جائعا .

ــ اذن ما الخبر ؟ اقترب مني واخبرني بسرعة .

فاقترب منها وهو يدعك عينيه بيديه ويقلب سحنته مجتهدا في بعث الدموع الى عينيه .

ــ آه يا خالتي العزيزة الطيبة ! لقد نزلت بي كارثة كبرى

ــ وما هي ؟

ــ لقد طردني الاب فورتيبه من المدرسة نهائيا .

ــ اذن لم تعد هناك امتحانات ولا مسابقة ولا بعثة ولا دير ؟ لم تعـد هناك اذن كنيسة انت قسيس فيها ، ولست انا اذن مدبرة بيت هـــذا القسيس ؟

فكان كل جوابه عليها نشيج وعويل اشبه بالعواء .

ــ اذن ايها الملعون انت الذي قد جلبت ذلك على نفسك بهروبك مـن المدرسة وتقصيرك في دروسك ، فقد شاهدك بعضهم يوم الاحد في وادي التنهدات مع بنت بيو .

ولم تكن العانس تدري شيئا عن الموضوع ولكنها استباحت لنفسها الكذب لتستدرجه الى الادلاء بالحقيقة ، وكان ابن اختها عند حسن ظنها ، أو سوئه ، اذ قال :

ــ لا يمكن أن يكون احد قد رآنا عند وادي التنهدات ، فقد كنا نتنزه تحت اشجار البرتقال !

ــ يا منحوس ! ها أنت قد اعترفت انك كنت معها .

ــ ولكن يا خالتي لا علاقة للانسة بيو بما حدث .

ها . تدعوها آنسة لتغطي سلوكك الشائن . ولكني سأعرف كيف اجعل قسيس اعتراف هذه المتشردة ينتزع الحقيقة منها عن مدى علاقتها بك .

ــ صدقيني يا خالتي ليس بيننا اي شيء . بل ان كاترين تدفعني بعيدا عنها دائما .

ــ ها . انت هذه المرة تدعوها كاترين لا الانسة . ها . انها أيها الغبي تدفعك بعيدا عنها على مرأى من الناس قط .

فهرش بيتو رأسه وحملق بعينيه في خالته وقال :

ــ هه ماذا تقولين ؟ ما اغباني فعلا ! هذا صحيح ! تدفعني بعيدا عنها حينما يكون هناك آخرون .

ــ اترك هذه المسألة لي . فاذا كانت هذه المتسكعة مع الصبيان في حاجة الى دير يعلمها الادب فسأتسبب في القائها في دير سان ريمي المشهور بالصرامة والتأديب .

ــ رحماك يا خالتي رحماك ! صدقيني انه لا علاقة للانسة بيو بطردي من المدرسة . فالسبب في هذه النكبة هو عدم صلاحيتي للكتابة اللاتينية. بحيث لا اصلح ابدا لدخول المسابقة .

ــ وماذا سيكون من أمرك ؟

ــ لا أدري لتفعل العناية بي ما تشاء .

وتجسم أمام العانس انجيليك مستقبلها القاتم وقد انهدمت آمالها فقفزت واقفة ثم انطلقت خارجة نحو منزل الاب فورتييه لتحاول معه محاولة اخيرة عسى ان يغير رأيه .

وتتبع بيتو خالته بعينيه حتى اختفت ، فوقف على عتبة الباب ينتظر عودتها ، وفيما هو كذلك مرت في الشارع العام من امام الحارة فتاة شابة، فوق صهوة جواد على جانبيه سلتان كبيرتان في احداهما دجاج وفي الاخرى حمام .

وكانت هذه الفتاة كاترين . فلما لمحت بيتو واقفا ببابـــه توقفت ، فاحمر وجهه كعادته ووقف مفتوح الفم يتطلع اليها باعجاب وتولــه ، لان الانسة بيو كانت في نظره مثال الملاحة البشرية المجسمة . والقت الفتـاة نظرة على الشارع حولها ، ثم حيت بيتو بايماءة لطيفة واستأنفت سيرها ، تاركة بيتو تختلج اعضاؤه جميعا بنشوة جارفة .

وقد استغرقته هذه النشوة استغراقا تاما ، ومدة طويلة ، بحيث لم ينتبه الى وصول خالته انجيليك من بيت الاب فورتييه ، الا حين تناولت يده وقد شحب وجهها غضبا ثم جرته الى الداخل وتناولت يد مقشـــة لتضربه ، فانتزع يده من يدها ولاذ بالفرار .

الفلاح الفيلسوف

راح بيتو يعدو كأن جميع أبالسة الجحيم في أعقابه ، فما هي الا ثوان معدودات حتى كان خارج البلدة ، فلما أراد أن يدور حول المقابر كاد رأسه يصطدم بمؤخرة حصان ، وصاح صوت ناعم جميل يعرفه بيتو جيدا :

ــ أوه ! لماذا تعدو هكذا يا مسيو آنج ؟ لقد كدت تفزعنــي وتفـــزع حصاني . ماذا حدث ؟

ــ آه يا آنسة كاترين ! لقد حلت بي كارثة !

ــ لقد افزعتني ! ماذا جرى اذن ؟

ــ جرى ؟ جرى أنني لن أكون قسيسا يا آنسة .

ولكن بدلا من أن تتلقى الآنسة المذكورة هذا النبأ بالبكاء أو الاغماء ، انطلقت في عاصفة من الضحك .

ــ الن تصبح قسيسا اذن ؟

ــ كلا . يبدو ان هذا مستحيل .

ــ اذن فلتصبح جنديا .

ــ جنديا ؟

ــ بلا شك . هذا ممكن جدا . ولا يجب أن تيأس لامر تافه كهذا. لقد خيل الي اول وهلة انك ستخبرني أن خالتك ماتت فكان للسبب الحقيقي في حزنك وقع غريب .

ــ خالتي ؟ لقد هربت منها وانتهى ما بيننا .

ــ احسن !

ـ انت تضحكين طبعا يا آنسة بيو ، فمن يده في النار ليس كمن يده في الماء .
ـ ومن يدريك انني لا اكترث اذا اصابتك كارثة حقيقية ؟
ـ وهذه كارثة حقيقية ! فلا مورد لي سوى خالتي .
ـ اشتغل اذن واكفل نفسك .
ـ اشتغل ؟ وماذا اشتغل ؟ لطالما اخبرني الاب فورتييه واخبرتني خالتي انجيليك انني لا اصلح لشيء . آه لو انهم علموني النجارة او الحدادة بدلا من هذه العلوم العويصة .
ـ معك حق . ولكن احسب ان لك حاميا هو الدكتور جيلبير ، فلماذا لا تكتب اليه ؟ فاني احسبه لا يتخلى عنك .
ـ افعل لو انني اعرف عنوانه . ولكن اظن والدك يا آنسة يعرفه ، فهو من مستاجري اراضي الدكتور جيلبير .
ـ انا اعلم ان ابي يبعث بنصيب من الايراد الى الدكتور في امريكا ، ويدفع الباقي الى موثق العقود في باريس .
ـ الدكتور في امريكا اذن ؟ امريكا مكان بعيد .
ـ وهل ستذهب الى امريكا ؟ !
وكانت لهجتها في السؤال تدل على فزع شديد .
ـ من ؟ انا اذهب الى امريكا ؟ ابدا .
وساد الصمت لحظة ، والحصان يمشي الهوينا بالفتاة ، وبيتو يسير معه خطوة بخطوة ، الى ان وقف الحصان فوقف بيتو ، وكان ذلك عند باب المزرعة . وصاح رجل عريض الاكتاف :
ـ اهذا انت يا بيتو ؟
ـ اي والله ! انا هو يا مسيو بيو .
وقالت الفتاة وهي تقفز من فوق الحصان :
ـ لقد حلت بالمسكين كارثة جديدة . فقد طردته خالته !
ـ وماذا صنعت بها حتى طردتك يا بيتو ؟
ـ انني ضعيف جدا في اللاتينية وفي الاغريقية .
ـ ولماذا تريد ان تكون قويا في الاغريقية ؟
ـ كي اقرا الالياذة وتاريخ توسيديدس .
ـ ولماذا تريد ان تقراهما ؟ ما جدوى هذه القراءة ؟
ـ ان اغدو قسيسا .
ـ مه ! وهل اعرف انا اللاتينية او اليونانية ، حتى الفرنسية ؟ هل

أعرف القراءة والكتابة ؟ وهل يمنعني هذا من البذر والري والحصاد على أحسن وجه ؟

ـ ولكنك يا مسيو بيو لست قسيسا ، انت فلاح .

ـ وهل تظن الفلاح ليس ندا لصاحب الرداء الاسود ؟

ـ طالما كرروا على مسمعي ان القسيس أحسن رجل في العالم .

ـ خدعوك ! انا أعتقد انك تصلح لما هو خير من الكهانة . عليك يا ولدي بالفلاحة ، وصدقني ان المستقبل ليس لرجال الكهنوت، فمن قريب ستهب عاصفة تقلب الدنيا راسا على عقب ، ولن يخرج منها القسوس ظافرين سالمين ، والآن خبرني ماذا تحسن ؟

ـ لا شيء اكثر من نصب الفخاخ للارانب وصيد الطيور ، ومحصولي العلمي في حكم العدم .

ـ لست أعني هذا .. بل أعني هل انت كسول يكره العمل ؟

ـ صدقني انني لا ادري ، فاني لم اجرب العمل قط .

فانطلقت كاترين ضاحكة لهذا الجواب اما والدها فعبس وقال :

ـ يا لهؤلاء القسوس المناكيد ! هكذا يفسدون تربية الغلمان ويربونهم على الخمول والبطالة ؟ اي فائدة فيمن يربى هذه التربية لاخوانه في الانسانية ؟

ـ لا فائدة لي على الاطلاق ولا لاخواني ، ومن حسن الحظ انه ليس لي اخوان .

ـ اعني المجتمع .. فالناس جميعا اخوة .

ـ اجل . هذا مذكور في الانجيل .

ـ وسواسية ..!

ـ آه . هذا موضوع اخر .

ـ بل سواسية . وسنبرهن على هذا رغم انف الطغاة . ودليلي على ذلك الان انني سادخلك الى بيتي واقيمك فيه .

ـ تدخلني الى بيتك ؟ اتعني ما تقول ؟ الا تهزا بي ؟

ـ كلا بل اعني هذا . والآن خبرني ماذا تحتاج اليه كي تعيش ؟

ـ رغيفا وقطعة جبن .

ـ ما اهون هذا ! اراك لن تكلفنا كثيرا في طعامك .

وهنا تدخلت كاترين فقالت :

ـ اليس لديك ما تسال فيه ابي ؟

ـ تذكر . لماذا اتيت الى هنا الاذن؟

ـ انا يا انسة ؟ لا وربي !

ـ لانك كنت آتية .

ـ هذه مجاملة رقيقة منك . ولكني اذكرك ان حقيقة السبب فـــي حضورك لسؤال عن عنوان ...

ـ آه الان فقط تذكرت . فقد نسيت الموضوع باكمله . انني يا مسيو بيو كنت اريد ان اعرف عنوان الدكتور جيلبير . ـ كنت ؟

ـ نعم كنت . فلا حاجة بي الان اليه ما دمت ستاخذني وتضمني الى مزرعتك ، ريثما يعود على مهله من امريكا .

ـ اذا كان الامر كذلك يا بني فلن يطول انتظارك .

ـ هل سيعود قريبا من امريكا الى فرنسا ؟

ـ بل عاد فعلا . فقد وصل منذ اسبوع الى ميناء الهافر. وقد وصلني منه اليوم خطاب مع طرد صغير .

ثم قدم الخطاب الى كاترين فقرات فيه ما ياتي :

«عزيزي مسيو بيو

«لقد عدت من امريكا حيث وجدت شعبا اغنى واعظم واسعد من شعبنا. ذلك انه شعب حر ، ونحن لسنا احرارا . بيد اننا نقترب من عهد جديد ، وعلى كل واحد منا ان يعمل جاهدا كي يقرب ساعة بزوغ شمس ذلـــك العهد . واني اعرف عقيدتك يا مسيو بيو ومدى تاثيرك على زملائك الفلاحين وعلى سائر الاهالي من الصناع والاجراء ، تاثيرا ابويا . فبث في نفوسهم التضحية والاخاء . واني باعث اليك بطرد صغير فيه كتاب قمت بتاليفه وان لم اطبع اسمي عليه . فانشر ما فيه من المبادىء الانسانية ، واحرص على ان يتلى على اسماع الناس والفلاحين خاصة في سهرات الشتاء حول النار. فالقراءة غذاء العقل كما ان الخبز غذاء الجسد. واعلم انني سازورك لاقترح عليك نظاما جديدا في الايجار هو السائد في امريكا ، وهو نظام المناصفة في المحصول بين المالك والفلاح ، فاني ارى ذلك هو اقرب الى المبادىء الفطرية في المجتمع الطبيعي ، وهو على الخصوص اقرب الـــى تقوى الله .

«دامت لك الصحة والاخوة — انوريه جيلبير»
مواطن من فيلادلفيا

وابدت الفتاة اعجابها بالخطاب ، اما بيتو فصاح :

ـ كلام جميل وبيان رائع .

فقال الاب بيو وهو يعطيه الكتاب :

ـ وهذا عمل قد اعده الله لك . فعليك انت مهمة قراءة هذا الكتاب

في جلساتنا المسائية .
وكان عنوان الكتاب «استقلال الانسان وحرية الشعوب» .

اللعب بالنار

نزل بيتو في بيت المسيو بيو على الرحب والسعة ، ووجد في زوجته سيدة رحيمة طيبة القلب نفذت الى قلبه بسهولة من طريقه الطبيعي وهو الطعام الجيد الوفير . اما كاترين فزاد انسا بها وراحت تفتح عينيه على امور الحياة التي كان يجهلها في بيت خالته وفي معهد الاب فورتييه ، فعرف قيمة الاناقة والرشاقة ، واصول الكلام ، واهمية الرقص ، وأدرك مبلغ ما ينقصه كي يكون انسانا متمدنا .

وعرف من الاب بيو نفسه ان الدكتور جيلبير كان قد دفع عن السنوات الخمس الماضية الفا ذهبا لخالته ، فأدرك وهو الذي تعلم بالمجان واكل الكفاف ان هذه الخالة أثرت من ورائه ، حتى اذا انقضت السنوات الخمس المنصوص عليها في العقد ألقت به في عرض الطريق .

وعرف شيئا اخر اكثر من هذا اهمية ، فان الالفة بينه وبين كاترين جعلتها تدقق النظر في خلقته ، فصارحته انها تجد تقاطيعه غير منتظمة ، ويديه اكبر مما يجب ، وركبتيه اضخم مما ينبغي ، وساقيه طويلتين طولا يمنعه من اجادة الرقص . ولكنها عقبت على هذه الملاحظات بقولها في تلطف باسم : — ولكني اراك رائعا كما انت على العموم .

وكان هذا الكلام عقب ظهوره بملابسه الجديدة صباح الاحد ، ثم انصرفت الفتاة وأمها لحضور صلاة القداس في الكنيسة ، اما المسيو بيو فاخذ بيتو من يده قائلا :

— تعال معي ، فهناك من ينتظرنا .

فانحنى بيتو بوقار شديد لمدام بيو والانسة كاترين ، ثم تبع المسيو بيو في وجهته الغامضة مرفوع الراس مزهوا بان يعامل لاول مرة في حياته معاملة الرجال فلا يصحب النساء الى الكنيسة .

وكان في انتظارهما جمع كبير من الفلاحين في الجرن . فالمسيو بيو كما أسلفنا كان محل احترام اجرائه وجيرانه ، فبادروا الى تلبية دعوته ، يضاف الى ذلك ان الخواطر في هذا الوقت قلقة ، فالجماهير تنتابها قبيل الحوادث الجسام اعراض كأعراض الحمى تجعلها غير مستقرة على حال ،

تتلمس وجهة تحسها في اعماقها ولكنها لا تدري على وجه التحديد ما هي هذه الوجهة .

***

وكانت قد شاعت في الناس كلمات جديدة ومعان جديدة يتفق شيوعها دائما عند نشوء «وعي جديد» . وكانت هذه الكلمات التي تناولتها الافواه والاسماع لذلك العهد هي الحرية والاستقلال والمساواة .

ومن عجب ان هذه الكلمات قد سارت اول مسارها لا على السنة العامة والدهماء ، بل على السنة النبلاء في اول الامر ، فهم الذين تطوعوا متحمسين في حرب الاستقلال الامريكي ، وساهموا بسيوفهم ودمائهم في اقامة صرح تلك الجمهورية الحرة بلبنات متماسكة من الاشلاء والدماء.

ففي ذلك اليوم الموعود اذن كان قد اجتمع في الجرن نحو خمسة وعشرين رجلا كلهم من الاجراء الذين يعملون لحساب مسيو بيو ويحفظون له العهد شاكرين له ما يجزل لهم من عطاء وما يتكرم به عليهم من طعام اضافي وهبات .

فلما دخل عليهم المسيو بيو يتبعه بيتو وقفوا جميعا حاسري الرؤوس ولوحوا بقبعاتهم مرحبين ، وقد بدا على وجوههم واضحا انهم على استعداد لمواجهة الموت واقتحام النار اذا بدرت من المسيو بيو اقل اشارة.

وقد بدأ المسيو بيو فذكر لهم ان الكتاب الذي سيتلوه عليهم بيتو من تاليف الدكتور جيلبير ، وكانوا جميعا يعرفونه ويحبونه ويجلونه .

وبدأ بيتو يقرأ ، وهم يصغون اليه في انتباه شديد ، على قلة محصولهم من الفهم . بيد أن كثرة تكرار كلمات الحرية والاستقلال والمساواة كانت بمثابة انبثاقات من النور في ظلام جهلهم الدامس ، فكانوا يصفقون لها بحماسة شديدة هاتفين بحياة الدكتور جيلبير .

واتم بيتو في هذه الجلسة قراءة ثلث الكتاب ، وتقرر قراءة الثلثين الباقيين في يومي الاحد التاليين ، ودعي الحاضرون فوعدوا جميعا بتلبية الدعوة .

وكان بيتو قد احسن القراءة فاثنى الجميع عليه وصفقوا له ، وشعر المسيو بيو نفسه نحوه بشيء من التقدير ، ولم يكدر عليه ذلك المجد سوى امل واحد ، ان الانسة كاترين لم تكن هناك لتشاهد ذلك المجد وتساهم في الاعجاب به . ولكن عوضه عن ذلك ان المسيو بيو قص

الموضوع كله على زوجته وابنته بمجرد عودته الى البيت مع بيتو . ولم تعلق زوجته بشيء على ما سمعت ، فقد كانت امراة ساذجة قصيرة النظر، اما كاترين فابتسمت ابتسامة حزينة وقالت :

ـ أخشى يا والدي ان تكون مقدما على اللعب بالنار . فقد قيل لي ان عيونا تترصد حركاتك . — ومن الذي قال لك هذا ؟

ـ انه شخص من المفروض انه مطلع على بواطن الامور ، هو المسيو دي شارني ، الذي جمعني به مرقص الاحد الفائت .

ـ هل لك ان تنقلي اليه من جانبي نصيحة ، ان يحسن رهطه من النبلاء السلوك في الجمعية الوطنية ، ولاسيما اخوه أوليفر الذي يقال انه على أوثق الصلات بالمراة النمسوية التي يدعونها «ماري انطوانيت» !

ـ انه لم يقصد سوءا بنصيحته، وانت حر في تصرفاتك على كل حال.

***

وختم الموضوع عندئذ ، ثم قدم طعام الغداء . وكان اليوم هو الثاني عشر من يوليه ، وفي الساعة الرابعة خرج بيتو وقد تأبطت ذراعه فاتنة لبه الانسة كاترين ، والارض لا تكاد تسعه من فرط الزهو والسرور . ولما كانت حلقة الرقص لا تبدأ قبل الساعة السادسة ، فقد اتسع امامهما الوقت للتنزه في وادي التنهدات ، ومشاهدة السادة من الشبان يلعبون التنس تحت اشراف مدرب صاحب السمو دوق اورليان. وهناك انفسحت الفرصة امام كاترين لتعرض ثوبها الجديد الجميل ، وراق ايضا في نظر بيتو ان يعرض بذلته الزرقاء الجديدة وقبعته الانيقة . ولما كان رواد هذا المكان لم يروا بيتو من قبل ، فقد ظنوه شابا زائرآ من اقرباء آل بيو ، وذهب بعضهم الى القول انه خطيب كاترين ، بيد أن بيتو بدد هذه الشبهات حين عرفهم بنفسه ، فسرعان ما تناقلت الافواه اسمه مقرونا بالدهشة لما طرأ عليه من تغير في الشكل والملبس والظروف الاجتماعية. وقد وصل ذلك الهمس سريعا الى سمع خالته انجيليك ، فحدقت فيه ثم اكدت انه ليس بيتو !

وبعد قليل بدأ الرقص داخل البناء ، ومر بقربهما عند المدخل شاب ممن كانوا يلعبون التنس في الخارج ، فانحنى لكاترين باسما ، فأجابته بانحناءة وقد تدرج وجهها احمرارا . وفي الوقت نفسه شعر برجفة وقال لكاترين بعد أن ابتعد الشاب : — هذا هو مسيو دي شارني ؟

ـ اجل ، انت تعرفه اذن ؟ ـ كلا ، ولكني ظننت فصدق ظني.

وكان ذلك الشاب انيقا جدا في نحو الرابعة والعشرين من عمره ، وسيما ، معتدل القامة ، حلو القسمات ، رشيق الحركات شأن جميع الذين نشأوا في حجر الارستقراطية منذ نعومة اظفارهم ، فرضعوا لبانها تربية وسلوكا ، حتى اصطبغوا بصبغتها في كل شيء .. يضاف الى ذلك ان المسيو دي شارني كان مشهورا بين النبلاء انفسهم بأناقته المثالية وذوقه الرفيع ، وهو الشقيق الصغير للكونت دي شارني عضو الجمعية الوطنية. وقد أثرت فيه برغم حداثة سنه كثرة السهر والمقامرة والانهماك في اللذات ، فتركت في صحته ووجهه آثارا مبكرة . اما صاحبنا بيتو فقد ترك في نفسه مظهر الشاب اثرا من الحسرة والارتباك والاسى ، فلاذ بصمت حزين . وتقدم الشاب بعد قليل فاوما الى بيتو محييا ، ثم سأل كاترين عن صحتها وصحة والدها ، وطلب منها ان تمنحه الرقصة الاولى، فقبلت مسرورة . وكان بيتو قد لاحظ عند اقتراب الشاب منهما ان وجهها كان يزداد احمرارا بمقدار اقباله نحوها ، فزاد ذلك من شعوره بالتعاسة والحسرة على نفسه ، فراح يحملق في الشاب الارستقراطي وهو يكاد يلتهم لهجته ووقفته واشاراته التهاما .

وكانت لحظات الرقصة الاولى من أحلك لحظات حياة بيتو . ولكن كاترين لم تكن تدري شيئا عما يدور في نفسه ، فقد كانت بادية السرور والخيلاء لمراقصة أوسم الراقصين في الجماعة كلها . والواقع انه كان راقصا بارعا جدا ، حتى ان بيتو أعجب به برغم انفه .

فلما انتهت الرقصة وعادت اليه كاترين وجدته شاحب الوجه جدا ، فانزعجت وسألته عن خطبه فقال :

ـ خطبيُ انني لن اجرؤ على مراقصتك بعد ان رايتك تراقصين المسيو دي شارني الان .

ـ مه ! يجب الا تثبط عزيمتك على هذا النحو ، فتتعلم الرقص وسترقص معي كأحسن ما يتفق لك .

ـ انك تخدعينني لتغريني ، فانا اعلم انك تسرين سرورا خاصا بمراقصة المسيو دي شارني النبيل .

ولم تجب كاترين ، لانها لا تحب الكذب . ولكنها ادركت ان شيئا غير مالوف يدور في أعماق هذا الفتى المسكين ، فزادت في التلطف اليه . لكن هذا التلطف لم يثمر في رده الى البشاشة المفقودة .

ورقصت كاترين بعد ذلك خمس مرات كانت اخرها مع الفيكونت دي

شارني وقد تتبعهما بيتو بأنظاره ولاحظ تهامسهما . فلما انتهت تلك الرقصة اعلنت كاترين عن رغبتها في العودة ، فأدرك بيتو انها لم تنتظر الى الان الا لكي تحظى بهذه الرقصة الثانية مع الفيكونت .

وفي الطريق ظل بيتو واجما صامتا فلما استفسرت منه قال :

ـ اعذريني الا اكلمك ، لاني لا احسن ان اتكلم على نحو ما يتكلم المسيو دي شارني . ثم ماذا عساي اقول بعد الكلام اللطيف الذي لا شك انك سمعته منه اثناء الرقص ، بصوته الهامس .

ـ اراك تسرف على نفسك وعلى الناس . فقد كان حديثنا عنك .

ـ عني انا يا انسة ؟ وكيف كان ذلك ؟

ـ الموضوع انك اذا لم تجد سبيلا الى حماية الدكتور جيلبير حاميك القديم ، فينبغي ان تجد لك حاميا اخر يمهد لك سبيل المستقبل .

ـ ولماذا يا انسة ؟ هل ثبت عدم صلاحيتي لامساك الحسابات !

ـ بالعكس . فحسابات المزرعة هي التي اثبتت عدم جدارتها بتوليك شانها . فقد ظهر للجميع انك متعلم ، تستحق مستقبلا افضل .

ـ لست أدري لماذا أصلح ، ولكني على كل حال ارفض كل تحسين يصل الي عن طريق الفيكونت دي شارني .

ـ ولماذا ؟ ان شقيقه الكونت ذو مكانة مرموقة في البلاط ، وهو متزوج من صديقة حميمة للملكة . وقد أكد لي الفيكونت الان انه يستطيع توظيفك في الجمارك اذا راق لك ذلك .

ـ شكرا لعواطفك وعواطفه . فبقائي في المزرعة افضل لي الا اذا كان والدك راغبا في ابعادي .

وريع الشابان حينئذ بصوت أجش يصيح في الظلام :

ـ ولماذا بحق الشيطان أرغب في ابعادك !

فهمست كاترين مرتاعة في اذن بيتو :

ـ أرجو منك يا عزيزي بيتو الا تذكر اسم الفيكونت على لسانك .

ـ لماذا لا تجيب ؟ وما الذي يدعوك الى الظن انني أريد ابعادك ؟

ـ لا ادري . ربما كانت حساباتي غير دقيقة .

ـ هراء ! انت دقيق الحساب ، وقراءتك رائعة ، واحسبك جديرا ان تكون استاذا لمعلم المدرسة في فن القراءة ، كلا يا بيتو . لقد دخلت بيتي باذن الله وستبقى فيه ما شاء الله .

فسرى ذلك عن بيتو ، ولكنه شعر انه فقد شيئا كان يملكه قبل ذهابه الى المرقص وذلك هو الثقة في نفسه والامل في غده .

وظل بيتو تلك الليلة يتقلب في فراشه مسهدا الى قرب الفجر، فصحا في الساعة التاسعة من الضحى واختلى على درجات سلم خلفي مواجه لنافذة كاترين واخرج الكتاب من جيبه ليتم لنفسه قراءته .

وغني عن البيان ان عينيه كانتا تقفزان فوق السطور اكثر مما تستقران عليها ، ولكن لم يظهر للحسناء اثر في النافذة ، فاستسلم للقراءة ، وان كانت أنامله قد اغلقت تقليب الصفحات! فتشتيت ذهنه منعه من استيعاب ما يقرأ . واخيرا لاحظ ظلا فوق الصفحات طارئا فرفع عينيه ليرى رجلا في نحو الخامسة والاربعين اطول من بيتو نفسه وانحف ، في ثياب حائلة اللون ، وكان يقرأ من الكتاب من فوق كتفي بيتو بامعان شديد . ورأى بيتو على وجهه ابتسامة رقيقة كشفت عن ثنايا حمراء خالية الا من اربع اسنان . ثم قال الرجل :

ـ كتاب مطبوع في بوسطن بامريكا عام ١٧٨٨ . من تاليف الدكتور جيلبير . هل لي ان اعرف يا سيدي من مالك هذا الكتاب ؟

وفي هذه اللحظة ظهرت في النافذة من وراء ظهر الرجل الانسة كاترين وراحت تشير لبيتو اشارات غريبة ، ففهم وقال :

ـ انه ملكي انا . .   ـ اذن يا صاحبي انا اقبض عليك !

وصفر الرجل فظهر شرطيان كانما انشقت عنهما الارض ، فقيدا معصمي بيتو بحبل ، وبين كفيه كتاب الدكتور جيلبير ، ثم ربطاه الى حلقة كانت في الجدار تحت النافذة ، ثم دخل الشرطيان المزرعة ليحضرا مائدة يكتبان فوقها المحضر ، ودخل معهما الكهل لأمر ما .

وما غابوا داخل البيت حتى ظهرت كاترين في النافذة تهمس له :

ـ ارفع يديك الى اعلى ما تستطيع .

فلم يرفع يديه فقط بل وراسه ايضا ، فرآها تطل وفي يدها سكين قطعت به الحبل ، فتحررت يداه وبقي مربوطا الى الحلقة فاعطته السكين كي يقطع ذلك الحبل وينجو بنفسه ، واعطته جنيها ذهبيا قائلة في لهفة:

ـ أجر بآخر ما تستطيع ، فهذا اوان استغلال طول ساقيك ، واذهب فورا الى باريس وابلغ الدكتور ما حدث .

وفي هذه اللحظة ظهر الشرطيان ، وكان بيتو قد قطع الحبل الذي يربطه الى الحلقة ، فلما رآهما عند الباب وقف شعر راسه ، ثم قفز قفزة رائعة من فوق السور المنخفض ، فصرخ الشرطيان واسرعا خلفه عن طريق البوابة ، لانهما لا يستطيعان القفز من فوق السور كما فعل بيتو ، ولكن بيتو كان قد تمكن من النجاة نهائيا .

كان ذلك المفتش قد دخل البيت من قبل ، ومعه الشرطيان ، ولم يكن ثلاثتهم من رجال المنطقة ، بل حضروا خصيصا لذلك من باريس، فوصلوا في السادسة صباحا ، واسترشدوا برجال بوليس البلدة حتى دلوهم على مزرعة بيو . وكان بيو نفسه اول من لقيهم ، فقال له الرجل العجوز بصوت ناعم موسيقي الجرس :

ــ اهلا بك يا صاحبي . لدينا أمر بتفتيش مسكنك .

فقال بيو غاضبا في دهشة شديدة :

ــ عجبا ! كنت اظن اننا وقد صارت لنا «جمعية وطنية» منتخبة تعقد جلساتها في باريس ، لم نعد معرضين لهذه الاجراءات التعسفية ، التي صارت في ذمة العهد البائد . ثم ماذا تريدون مني ؟ اني رجل مسالم .

فتنهد الشيخ مظهرا اسفه وعطفه ، ثم اشار بيده اشارة خفية الى الشرطيين ، فتقدما نحوه ، فقفز بيو نحو بندقيته المعلقة على الحائط ، بيد ان يديه شلتا عن الحركة ، بقبضتين صغيرتين بضتين تعلقتا بهما في ذعر شديد ..

وكانت هاتان القبضتان قبضتا كاترين، التي ادركت سوء مغبة الاقدام على هذا الفعل الذميم ، في مقاومة رجال الحكومة ، لانه يتيح لهم ــ دون جناح عليهم ــ ان يقتلوه تحت ستار الحجة المعروفة «قاوم فقتل» .

وقد ادرك بيو من فوره دوافع ابنته الوحيدة ، فاذعن مستكينا ، وساقوه الى حجرة مخزن الماكولات فاغلقوا عليه بابها ، وانصرفوا الى تفتيش جميع انحاء البيت تفتيشا دقيقا ، آمنين من هربه ، لان جميع نوافذ ذلك الطابق الارضي كانت محصنة بقضبان الحديد . واما كاترين فحبسوها في غرفة بالدور العلوي ، تاركين امها في المطبخ تعمل لانهم ادركوا انه لا خطر منها على الاطلاق .

وراح بيو ينظر من خرق المفتاح ، ويرى المفتش ومعاونيه يقلبون كل شيء راسا على عقب، ولا يتركون شاردة ولا واردة الا دققوا النظر فيها.. فثار غضبه مرة اخرى وصاح من وراء الباب وهو يدق بقدميه ويديه :

ــ خبروني ما معنى هذا كله !

فأجابه المفتش بصوته الموسيقي العذب الهادىء النبرات :

ــ ها انت ترىانا نبحثعن شيء لم نجده بعد، ولهذا والينا التفتيش!

ــ ومن يدريني انكم لستم قطاع طرق ولصوصا اخساء ؟

ــ معاذ الله ! كيف تقول هذا يا عزيزي الفاضل ؟ نحن قوم شرفـــاء مثلك تماما ، وكل ما هناك من فرق بيننا اننا في خدمة صاحب الجلالة، ونقبض منه رواتبنا واعطياتنا ، لهذا لم يكن لنا بد من تنفيذ أوامـــره الملكية ورغباته .

ــ الملك ؟ اجلالة لويس السادس عشر هو الذي امرك بتفتيش منزلي ومزرعتي ؟ وهل امرك ايضا ان تفسد كل نظام ، وتقلب كل موضع ؟

ــ أجل !

ــ وهل انقلب جلالته الان ضدنا ، يفسد حاصلاتنا وبيوتنا ، بعد ان اكل الجفاف والقحط حاصلاتنا في العام الماضي حتى كدنا نهلك جوعا فلم يحرك ساكنا ؟ ان جلالته والله لعجيب امره !..

ــ سيدي ! ارجو منك ان تراعي ظروفي ، فلو علم مولانا انك تتحدث عنه بهذه اللهجة ، فانه لا شك سيغضب. لهذا ارجو ــ وان كنت لا تعرف جلالته معرفة شخصية ــ ان تتقبل بشكر وامتنان ذلك الشرف الــذي اولاك جلالته اياه ، اذ عنى بتفتيش مزرعتك وبيتك .. وان تستقبل رجال جلالته المكلفين بهذا الامر اكرم استقبال ...

فلاذ بيو بعد ذلك بالصمت ، وتركهم يفتشون كما يريدون . مكتفيـا بعقد يديه على صدره في غضب كظيم . وقد ايقن ان الذي جر عليه ذلك البلاء ، هو كتاب الدكتور جيلبير . وتذكر نصائح ابنته كاترين وهو يسمع صوت تأوهها في الغرفة التي تعلو غرفته ، حيث حبسوها .

وطال زمن التفتيش ، واخيرا عاد بيو يسألهم نافد الصبر :

ــ اهلا خبرتموني عم تبحثون ، فقــد أفيدكم بشيء يغنيكم عــن هذا العناء ؟

فاخبره الشيخ انهم يبحثون عن كتاب للدكتور جيلبير حرم تداولـــه الرقيب . فقال له بيو انه لا يدري عن ذلك الكتاب شيئا سوى ان الدكتور آرسل اليه نسخة واحدة . ولما كان يجهل القراءة فقد اعطاها لفتى يقيم في المزرعة اسمه بيتو . ولا علم له عدا ذلك بشيء !

واصغى المفتش الى هذا الكلام في اهتمام ، ثم استانف التفتيش في صمت وتدقيق كانه لم يسمع شيئا . واخيرا فتحــــوا دولابا للملابس والمفارش ، فاخرجوا كل ما كان بداخله وتكثوه على الارض ، فعثروا في قاعه بصندوق من خشب البلوط صغير ، ما ان رآه الشيخ حتـــى لمعت عيناه وبرقت أساريره ، وتناوله في لهفة فدسه تحت معطفه وانصرف مع رجليه مسرعا ، الى الفناء الداخلي ، حيث عثر بيتو على النحو الذي بيناه

في الفصل السابق ، ومعه الكتاب العتيد وقد أحطنا القراء في ذلك الفصل بهربه ومطاردة الشرطيين له .

ولكن الجديد في الموضوع ان المفتش ما ان وثق من ابتعاد بيتو ، حتى أمر رجاله فكفوا عن المطاردة ، وساروا في الاتجاه المضاد ، كأنهم يبغون الفرار بدورهم .. ثم جلسوا ليستريحوا في الغابة ، وقال المفتش متنفسا الصعداء :

ــ لعمري اننا لمحظوظون ! فلو كان الذي فر به الفتى هو الصندوق ، لا هذا الكتاب الملعون ، لخرجنا بصفقة المغبون ! ولكن واعجبا لهذا الغلام ! ان له ساقين سريعتين كأنهما ساقا غزال !

ــ ولكنه لم يظفر بالصندوق يا سيدي ، لانك الذي ظفرت به .

ــ طبعا طبعا . وهذا هو تحت ثيابي . ولذلك فلنا الحق جميعا في المكافاة الجزيلة التي وعدنا بها ..

ــ ليحيا مفتش البوليس !

ــ صه ! ليس لمفتش البوليس في هذه المكافاة شان .. وان كان لا بأس من الهتاف باسم مفتش البوليس على كل حال .. فليس ذلك المفتش هو الذي سيدفع ..

ــ من اذن ؟

ــ انه سيد ، او بالاحرى .. سيدة من اصدقائه ، له او لها مصلحة في الحصول على ذلك الصندوق باي ثمن .. ولكن ينبغي ان نذكر ان المكافاة لم تصر الى جيوبنا بعد ..

ــ هذا صحيح وحق الشيطان !

ــ لهذا يجب ان نبذل اقصى الجهد كي نخرج من هذا الجوار باسرع ما يستطيع راجلين ، ثم نركب عربات البريد الى باريس ، كي نسلم البضاعة ، ونتسلم المكافاة الموعودة .. قبل ان يتنبه ذلك الفلاح اللعين لفقد هذا الصندوق ، فيجد في اعقابنا كالمجنون . ولعمري انه ليس من الوادعين الهين أمرهم ، فانه فيما يبدو ماهر في اصابة الهدف مهارة لا يباريه فيها حرس الملك !

وما سمع صحبه هذا الكلام ، حتى خفوا مذعورين ، وولوا على وجوههم مسرعين ..

والواقع ان ذلك الحذر جاء في ابانه ، فان بيو ما ان علم بالحقيقة حتى راح يصيح كالمجنون :

ــ الصندوق ! فتشوا جيدا عن الصندوق ! لقد اخذوا الصندوق !

فقالت ابنته كاترين متعجبة لامره وهي تحاول تهدئة ثائرته :

ـ ماذا جرى يا ابي ؟ اني لا اجد الصندوق الذي تتحدث عنه . ولماذا تضطرب هكذا ؟ ماذا كان يحويه هذا الصندوق اذن ؟

ـ لا أدري بحق السماء ! ولكني أعلم فقط انني تعهدت بشرفي للدكتور جيلبير ان احافظ عليه كما احافظ على حياتي حتى أسلمه الى يده سليما مصونا . فكان خيرا لي اذن ان اقتل ، من ان اسمح لهم بالاستيلاء على الصندوق ، هاتوا حصاني . حصاني ! حصاني ايها الناس ، ولن اعود الا بالصندوق !

وانطلق على صهوة جواده كالمجنون ، بحثا عمن سرقوا الصندوق !

بيتو في طريق باريس

ولنعد الان الى بيتو .

والحق ان هذا المسكين كان يجد في الهرب مدفوعا بأقوى دافعين في الوجود ، الا وهما الخوف والحب .

اما الخوف ، فكان يهمس له في اعماق سريرته قائلا :

ـ ان انت وقعت في أيديهم قبض عليك ، او نلت علقة ساخنة . فخذ حذرك ، وحافظ على جلدك وعظامك يا بيتو .

فكان هذا الهمس كافيا لبث الحرارة في ساقيه كلما همتا بالفتور .

وأما الحب ، فكان يحدثه من وراء قناع ، متمثلا له في صوت كاترين الحنون : ـ اهرب بسرعة وانج بنفسك يا عزيزي بيتو !

وكانت هذه التوصية الرقيقة كافية لا لكي يجري بأقصى سرعة فحسب ، بل لان يطير في الهواء طيرانا ، فلو ان له جناحين لطار !

وما انقضت على فراره ساعة، وهو يخترق الحقول والدروب والمسالك التي يحفظها عن ظهر قلب ، حتى كان قد وصل الى الطريق الكبير المؤدي الى باريس . وكان قد قطع في هذه الساعة اكثر من اربعة فراسخ . فوقف بيتو على رأس الطريق العام ، والقى نظرة مستريب على جهتيه . فلم ير احدا ، فهدأت نفسه .

وجلس يستريح برهة ، وقد صاحت عصافير بطنه تلح عليه في طلب الطعام . وتذكر ذلك اللحم المقدد المملح السمين الذي كانت تصنعه بيديها الماهرتين تلك السيدة الكريمة مدام بيو ، والدة كاترين . وذلك الخبز

اللذيذ الذي كانت تقدمه اليه كاترين في كميات ضخمة ثلاث مرات كل نهار ، حين تطلع الشمس ، وحين تتوسط كبد السماء ، وحين تميل الى الغروب وصعد آهة عميقة حسرة على ذلك الخبز واأسفاه فهو يعلم علم اليقين قيمة ذلك الخبز ، وكيف انه صار غاليا في تلك الايام بسبب القحط الذي اكل محصول العام الفائت من القمح ، فهو اذا وجد بيع باغلى الاثمان ، ولكنه في الغالب غير موجود ولا مطروح في الاسواق .. اما في بيت بيو فكان يقدم هذا الخبز اليه في كميات وافرة ، فياكل شبع بطنه. وانه لمصنوع صناعة جيدة ، يشبه ذلك البسكويت الذي يعزى الي «دوقة بولنياك» انها نصحت الباريسيين باكله حين شكوا الى الملك والملكة انهم لا يجدون الخبز القفار ولا الدقيق الخام !

واغرورقت لهذه الذكريات عينا بيتو بالدمع ، وخيل اليه ان الانسة كاترين بيو اجمل واكرم اميرة في الدنيا ، وأن مزرعة والدها الفاضل افخم قصر في الوجود ! ومال بعينيه نحو تلك الجنة المفقودة في تحسر ، واطلق زفرة اخرى كاد ينشق لها صدره ، ثم استأنف طريقه في خطوة سريعة منتظمة ، بمتوسط فرسخين في الساعة الواحدة .. فلم تنقض ساعتان أخريان حتى كان قد تجاوز نانتي واقترب من «دامرتان» .

وعندئذ طرق سمع بيتو المرهف وقع حوافر جواد مسرع يضرب بسنابكه ارض الطريق المفروشة بالحصباء ، فنظر وراءه محملقا ، ولكنه لم ير شيئا ، فتناسى الموضوع وانطلق في طريقه مستغرقا في خواطره وأحلامه عما فارقه من نعيم ، وعما سيستقبله في باريس من غد مجهول. وتساءل من عساه يكون ذلك الشيخ ذو الثوب الاسود الذي سأله عن الدكتور جيلبير ، ثم أوثق يديه بالحبال ، ثم طارده بمعاونة رجاله الذين برزوا له فجاة من وسط الطريق كأنما انشقت عنهم الارض ...

ثم تساءل مرة اخرى لماذا يقيدونه ، وكيف عرفوه مع انه لا يعرفهم . واي شر فعل حتى استحق ذلك كله .

وحيرته هذه الاسئلة ، فتساءل مرة اخرى ولماذا أوصته كاترين ان يتوجه الى باريس ، ولماذا اعطته ذلك الجنيه الذهبي الكبير البراق ؟ اي ما يكفي لشراء مائتين واربعين رطلا من الخبز ، برغم ارتفاع اسعار الخبز. وهي كمية تكفيه ثمانين يوما او ربما ثلاثة اشهر اذا تحرى سياسة التقشف . فهل معنى ذلك أن كاترين تقدر ان غيبته في تلك الرحلة ستطول حتى تبلغ ثلاثة اشهر ؟ وهل يحتمل الغياب عن المزرعة وعنها

ذلك الزمان الطويل ؟

وأجفل بيتو منتبها من أفكاره فجاة ، فقد عادت حوافر الحصان التي طرقت سمعه اول مرةالى طرقهمرة اخرىبصورة اوضح. فقال في نفسه:

ـ لست مخطئا في هذه المرة . فهذا ولا محالة صوت جواد مسرع .

والتفت وراءه فراى حصانا على بعد اربعمائة متر ، وايقن اول وهلة انه احد الشرطيين اللذين يطاردانه ، امتطى صهوة جواد ليلحق به ويقبض عليه ، فاستولى على المسكين الذعر الشديد ، وازدادت خطواته اتساعا وسرعة حتى كاد يسابق الريح ..

وابصر على البعد مجموعة اشجار ، أدرك انها طلائع غابة ، فقال في نفسه لو انني بلغت هذه الغابة لنجوت، لاني قمين ان اختفي بين الاشجار.

وكان عليه في هذه الحالة ان يسبق جوادا يعدو باقصى سرعته ، فأعاره الخوف جناحين وراح يطير بهما نحو شاطيء الامان .

ولم يكن اشد ما يزعجه وهو يهرب وقع حوافر الحصان وهو يجري في أثره بأقصى سرعة بل صيحة تحملها الريح الى اذنيه :

ـ او .. او .. او ...

فكان ذلك حافزا اكبر على التفاني في الجري .. ولكن لم تنقض عشر دقائق حتى احس المسكين ان صدره يكاد ينشق لسرعة دقات قلبه . وقل ـ برغمه ـ معدل سرعته ، وسرعان ما نقصت المسافة بينه وبين مطارده.. وحينئذ تبين ان ذلك الصياح لم يكن الا المقطع الاخير من كلمة كان يصرخ بها راكب الحصان .

وكانت تلك الكلمة هي بيتو ..

ـ آه ! لقد ضاع كل شيء ! ولم يبق ادنى شك في انه مطارد ، وانه واقع لامحالة بين أيدي الشرطة .

وتعثر المسكين لشدة ارتباكه فسقط على الارض سقطة بطحته ارضا على وجهه ، فادركه الفارس ، وترجل عن جواده ورفعه عن الارض .

ولم يكن ذلك الفارس ، الا المسيو بيو !..

واركبه المسيو بيو وراءه ، وقصدا معا الى المجهول ، في باريس .

مظاهرة باريس الدامية

وشارف الراكبان ضواحي باريس من جهة «فيبت» وقد خيم الظلام

فلاحظ المسيو بيو نيرانا كثيرة موقدة في الارض ، ومنتشرة هنا وهناك ، فلفت نظر بيتو متسائلا عن هذه الظاهرة ، فقال الفتى :

ــ الم تلاحظ يا سيدي ان هناك جنودا كثيرين منتشرين في الناحية ؟ وهذه نيرانهم وقده سكروا على ابواب باريس ، وكأني بهم جيش حصار .

وأدرك بيو ان ملاحظة بيتو في محلها ، ولاحت له الاسلحة براقة في ضوء النيران الساطعة .. فانتهز اول فرصة صادف فيها احد هؤلاء الجنود وراح يسأله عن علة وجود الجنود في ذلك المكان وعلى هذه الصورة ، فأجابه ذلك الجندي بلهجة أجنبية ، تظهر فيها اللكنة الجرمانية بوضوح شديد :

ــ انهم أصحابك الحمقى اهل باريس ، ركبوا رؤوسهم مصممين على رجوع «نكار» الى تولي الوزارة ..

ــ رجوع «نكار» ؟ وهل ترك الوزارة ؟

ــ طبعا . فقد طرده الملك منها .

ــ طرده الملك ؟ هل طرد الملك حقا ذلك الرجل العظيم ؟

ــ هذا ما حدث ، واكثر من هذا ان ذلك الرجل العظيم كما تسميه في طريقه الان الى بروكسل .

وعندئذ لكز بيو جواده وانطلق به مسرعا فدخل باريس ، واذا جموع حاشدة ، وانوار ساطعة ، وحركة وضجيج وصيحات في كل مكان . واذا مظاهرات رائحة غادية ، ولاسيما من جهة الباستيل الى جهة سان كلو ، فقد كانت مظاهرة كبيرة تحمل مائدة في مقدمتها عليها تمثالان كبيران ، احدهما تمثال نكار ، والاخر تمثال دوق اورليان .

وكان بيو من اهالي منطقة من مناطق الريف تتوارث الاعجاب والولاء لبيت دوقات اورليان جيلا بعد جيل ، منذ اكثر من قرن ونصف من الزمان . كما كان بيو ايضا ينتمي الى المدرسة الجديدة من الحربين التي تعبد نكار ، ولا ترى فيه رجلا عظيما فحسب، بل رسولا من رسل الحرية ومبشرا من كبار المبشرين بالانسانية . فلا عجب ان يكون لهذه المظاهرة صدى جميل جدا في نفس بيو ، فشعر ان باريس بلد جميل يوافق هواه ، فاندمج في هذه المظاهرة ، واجتهد ان يقترب من المائدة التي تحمل التمثالين ، لعله يفلح في المشاركة في حملها ارضاء لحماسته المتقدة .. وكان طول الوقت يهتف مع الهاتفين :

ــ يحيا نكار ! لا وزير الا نكار !. لا فرق اجنبية بعد اليوم !

واستمرت المظاهرة في طريقها مندفعة نحو الشمال تارة ، ونحو

اليمين اخرى حتى انحدرت في شارع مونمارتر ، ثم نحو ميدان النصر.. فلما صارت المظاهرة ازاء «الباليه رويال» وقفت عن المسير بسبب طارىء: فقد اعترضت الطريق حتى سدته مظاهرة يحمل كل افرادهـــا اوراق اشجار خضراء في قبعاتهم ، حتى كأنهم من بعيد غابة متحركة ! وكانـــوا يصيحون بأعلى اصواتهم هاتفين :

ــ الى السلاح ! الى السلاح !

فكان من الضروري أن يتبين المتظاهرون من انصار نكار ودوق أورليان كنه هؤلاء «الخضر» ، وهل هم اعداء او اصدقاء ..

والسبب في تلك الريبة واضح ، ذلك ان اللون الاخضر كان شعـــار الكونت دارتوا ، شقيق جلالة الملك لويس السادس عشر .. فلا بد مـــن معرفة معنى هذه الشارات على التحقيق .. فالمعروف ان الكونت دارتوا من المعسكر المعادي لابن عمه دوق أورليان .

وبدات المباحثات . ولكنها لم تستغرق الا دقائق معدودات ، تكشف بعدها كل شيء :

فانه ما ان ذاع في ذلك اليوم خبر اقالة نكار ، وسمع الخبر شاب كان حتى ذلك اليوم نكرة مغمورا لا يدري اسمه احد ، كان جالسا فـــي مقهى فوي ، حتى خرج من المقهى كالمجنون وقفز فوق منضدة في حديقة الباليه رويال ، ثم أخرج من صدره غدارة وصاح : ــ الى السلاح !

فتكاثر الناس من حوله وهم يرددون هتافه :

ــ الى السلاح ! الى السلاح !

وكان قد انتشر بين اهالي باريس حضور الفرق الاجنبية ولاسيمـــا النمسوية واقامة معسكراتها حول باريس ، فخيل الى الناس ان في الامر غزوة اجنبية ، مهد لها الملك بعزل نكار من الوزارة ..

وراح ذلك الشاب المتحمس يذكر اسماء الفرق الاجنبية ، وهي كلها اسماء ذات طابع اجنبي ظاهر اثار النفوس وجعل الجميع يتوهمون الخيانة الوطنية وخطر الاحتلال .. كما اعلن ان الجنود السويسريين عسكروا في الشانزليزيه ومعهم اربع بطاريات من المدافع ، وانهـــم سيدخلون باريس نفسها تلك الليلة ولو عنوة ، ثم اقترح ان يتخذ الوطنيون شعارا يتعارفون به ويحملون السلاح ، حتى يتبين العدو من الصديق . ثم مد يده الى شجرة كانت اغصانها تتدلى فوق راسه فانتزع منها ورقة خضراء غرسها في قبعته ، فحذا السامعون حذوه ، وان هي الا لحظات حتى كانت جميع اشجار حدائق الباليه رويال قد فقدت ورقها الاخضر الجميل كأن عاصفة

من عواصف الشتاء طافت بها في جوف الصيف .. واستحالت قبعات الناس الى خضرة زاهية كانما قد مستها يد الربيع !

وهكذا اصبح اسم ذلك الشاب الذي كان مجهولا منذ ساعات على كل لسان ، ودخل التاريخ من بابه الواسع .

قد كان ذلك الشاب هو «كاميل ديمولان» .

وتعارفت المظاهرتان ، وتآخى الجمعان ، وتعانق الناس من هنا وهناك على غير سابق معرفة ، كانما اصابهم مس خفت له عقولهم وتجاذبت ارواحهم حماسة ونشوة بالوطنية والفداء .. ثم اتحدت المظاهرتان في موكب واحد الى ميدان فاندوم .. حيث اعترضتها عقبة غير منظورة .

ولم تكن تلك العقبة الكؤود سوى الجنود الالمان ، وقد وقفوا كالاطواد او الجبال الراسية في ميدان فاندوم ثابتين في سرج جيادهم . فلما رأوا تدفق الجماهير المتحمسة كالطوفان حتى ملأ عليهم الميدان، اطلقوا لجيادهم العنان ، لا منسحبين ، بل هاجمين في حنق وعنف على تلك الجموع ..

وكان طبيعيا ان يتلقى حاملو المائدة التي يحملها التمثالان الصدمة الاولى ، فوقعوا على الارض وكان اول من ثاب لرشده فنهض منهم رجل من السافوا كان امام بيو مباشرة ... نهض وفي يده تمثال دوق اورليان، وراح يهتف بجنون :

ـ يحيا دوق اورليان !

وهو لم يره في حياته .. ـ يحيا المسيو نكار ..

وهو لم يتشرف بمعرفته ابدا . ولكنها الحماسة للحرية اتخذت من هذين الشخصين رمزا ..

وهم بيو ان يحذو حذو ذلك الرجل فيما يختص بتمثال نكار ، لولا ان شابا جميلا وسيما في نحو الخامسة والعشرين كان اسبق من بيو الى ذلك الصنيع .

وفجاة اهتز الميدان بصوت اطلاق النار من جهات متعددة ، وازت رصاصة بجوار أذن بيو ، فاصابت الشاب حامل تمثال نكار ، وتناثر دمه على وجه بيو وثيابه وشعره .. ذلك ان تمثال نكار كان قد سقط على ام راسه فاصابه بجرح ، فاطلق بيو صرخة غضب ورعب .. ثم دوى الرصاص من جديد ، لان المتظاهرين عادوا الى هتافاتهم المالوفة .. وشعر بيو بيد قوية توضع على كتفه وتأمره بالانبطاح ارضا . وتلك كانت يد بيتو ، فأطاع ، فكانت في ذلك نجاته ، لان الرصاص راح ينهمر على الناس كالمطر من حوله ، فيسقطون صرعى .. او يتفرقون شيعا . حتى

خلا الميدان من حول بيو وبيتو ، فقال بيتو لبيو :
ـ يبدو اننا وصلنا باريس في الوقت المناسب !
ـ طبعا . تعال ساعدني في حمل هذا المحتضر على ظهري . فلا ينبغي ان نتركه فريسة في ايدي هؤلاء الالمان القساة الاكباد .
واعانه بيتو ، فحمل ذلك الجريح على ظهره وانطلق به ، ووراءه بيتو، الى حدائق الباليه رويال . .

ليلة ١٤ يولية

وقد بدا الشارع لاول وهلة خاليا من الناس ، لأن الفرسان كانوا قد تعقبوا المظاهرة المتفرقة . ولكن عندما تقدم بيو نحو الباليه رويال وهو يصيح غاضبا : الثار الثار !
بدأ الناس يبرزون من منعطفات الشوارع ومن ابواب البيوت حيث كانوا مختبئين . وتبعوا تلك الجنازة الصاخبة التي قادها بيو ، إلى ان وصل هذا الموكب الى الميدان الواقع امام الباليه رويال حيث كان خلق كثيرون يتدارسون الموقف ويرون وجوب تدخل الجنود الفرنسيين للوقوف في وجه الجنود المرتزقة. وكان في ذلك الاجتماع عدد كبير من جنود الحرس الاهلي ، فما ان رآهم بيو حتى هتف : ـ من هؤلاء ؟
فأجابته أصوات كثيرة : ـ انهم الحرس الفرنسي .
ـ آه ! انتم فرنسيون حقا ، وتسمحون ان نقتل امام اعينكم بايدي هؤلاء الالمان ؟
فتراجع الحرس ماخوذين وقد تركزت أعينهم في الجثة التي يحملها بيو ، وصاح صائح من بين صفوفهم : ـ اهو ميت ؟
ـ بل قتيل . وهناك اخرون مثله قتلى . ـ ومن الذي قتله ؟
ـ الحرس الملكي الالماني . الم تسمعوا الصراخ واطلاق الرصاص ؟
وعندئذ صاح الجمهور الواقف في الميدان :
ـ اجل سمعنا . لقد كانوا يذبحون الناس في ميدان فاندوم .
فقال بيو مخاطبا جنود الحرس :
ـ ومع هذا فانتم من الشعب. اي وحق السماء انتم من الشعب فمن الجبن ان تتركوا اخوانكم يذبحون بين سمعكم وبصركم .
ـ من الجبن ؟!

ــ أجل من الجبن . قلتها واكررها . ولعلكم تفكرون في قتلي الان لكي تنفوا عن انفسكم تهمة الجبن التي ارميكم بها .

فأجابه احد الجنود قائلا :

ــ ان نحن الا جنود . وانت فتى شجاع ايها الصديق ، ولكن مــاذا نستطيع ان نصنع ، فانه لا يسعنا الا ان ننفذ ما يصدر الينا من الاوامر .

ــ هل معنى هذا انه اذا صدرت اليكم اوامر باطـــلاق النار علينا ، ونحن رجال عزل من السلاح ، لم تترددوا في اطلاقها ؟ وهل انتم حقا ورثة جنود فرنســا من ابطال فونتنوي الذين حاربوا الانجليز ، فرفضوا ان يبدأوا باطلاق النار ، ودعوا الانجليز الى اطلاق الرصاصة الاولى ؟

وعندئذ صاح صائح من بين صفوف الجنود :

ــ اما انا فلن اطيع مثل هذا الامر . ــ ولا انا .

ــ ولا انا . ــ ولا انا . ولا انا . ولا انا .

حتى انتظمت الصيحة جميع الجنود .

وفي هذه اللحظة سمعت اصوات جياد ثقيلة تقترب من بعيد ، ومن امامها اصوات المتظاهرين المطاردين يهتفون :

ــ الى السلاح الى السلاح .

فوجم كل من في الميدان . وصاح بيو بجنود الحرس :

ــ اعطونا بنادقكم على الاقل لنستعملها ما دمتم مصممين على عـــدم استعمالها بانفسكم .

فصاح احدهم :

ــ بل سنستعملها بحق السماء . هيا ايها الرفاق ولنعض طلقاتنـــا ونعدها ، حتى اذا بدا لهؤلاء النمسويين ان يحتكوا بهؤلاء الشجعان ، كان لنا معهم شان واي شان ..

فسرت الحماسة في صفوف الحرس الفرنسي ، واقبلوا على طلقاتهم يعضونها بأسنانهم ، كما كان ينبغي في بنادق ذلك العصر .. وصاح بيو :

ــ ما أنكدني لاني لم احضر من القرية معولي او فاسي . ولكن لا باس. فعسى ان ينفق احد هؤلاء النمسويين فأستولي على بندقيته !

واذا صوت يقول له من خلفه :

ــ وحتى ذلك الحين ، ها هي بندقية حاضرة معدة للانطلاق .

ودس صاحب ذلك الصوت المجهول في يد بيو بندقية مزركشة فاخرة.

واقبل في هذه اللحظة الى الميدان جماعة الفرسان الالمان بآخر سرعة ، وهم يطاردون الجماهير ويقتلون كل من يلقونه في طريقهم. فتقدم ضابط

الحرس الفرنسي اربع خطوات الى الامام ثم صاح :
ـ هوه ! ايها الفرسان .. قفوا حيث انتم .
ولسنا ندري هل لم يسمع حضرات الفرسان او هم قد تصنعوا عدم السماع . او انهم لم يستطيعوا ايقاف خيلهم وهي تعدو مطلقة الاعنة .. فالمهم على كل حال انهم اوغلوا في الميدان . وقتلوا امرأة ورجلا مسنـــا تحت سنابك خيلهم ..
فلما رأى بينو ذلك صاح كالمجنون بالحرس الفرنسي :
ـ اطلقوا النار ايها الفرنسيون . اطلقوا النار .
وكان بيو في هذه اللحظة واقفا الى جوار ضابط الحرس الفرنسي ، فربما حسبوا ان الضابط هو الذي أمر باطلاق النار .
وانطلقت الرصاصات من أفواه البنادق .. فتوقف الفرسان وصاح صائحهم وقد عقدت الدهشة البالغة لسانه :
ـ يا حضرات الحرس .. اتعلمون انكم تطلقون علينا نحن نيرانكم ؟
فأجابه بيو برصاصة صرعته وهو يصيح :
ـ اترانا حقا لا نعلم ؟
واطلق الحرس دفعة اخرى من الرصاص ، ولى على اثرها الفرسان الالمان الادبار ، فقد وجدوا انهم لم يعودوا امام جماهير عزل منظمة .. واستبدت الحماسة بالناس فتصايحوا هاتفين :
ـ يحيا الحرس الفرنسي ! ـ يحيا جنود الوطن !
اما بيو فانه راح يفحص البندقية التي في يده بأناة وقال :
ـ ولكن لمن هذه البندقية الثمينة يا ترى ؟
فأجابه الصوت الذي كان قد تحدث اليه من وراء ظهره قائلا :
ـ انها لمولاي .. وان مولاي ليظن انك تحسن استخدامها ، بحيث لا حاجة به الى استردادها منك ..
فالتفت بيو فرأى صاحب الصوت في ثياب حاشية دوق أورليان ، فسأله قائلا : ـ وأين مولاك ؟
فأشار الرجل الى نافذة نصف مغلقة كان الامير واقفا بها يرقب الحالة، فقال بيو للرجل عندئذ :
ـ هل مولاك في جانبنا اذن ؟ ـ انه مع الشعب قلبا وروحا ..
ـ ما دامت الحالة كذلك ، اهتفوا معي ايها الاخوان : يحيـــا دوق اورليان ! دوق اورليان مع الشعب !
واشار بيو بيديه الى النافذة ، فانحنى الدوق شاكرا بعد ان فتحها

على مصراعيها ، ثم اقفلها مرة اخرى واختفى عن الانظار . فكان ذلك كافيا لالهاب حماسة الناس وهتافهم له بحرارة شديدة .. ثم اخذت الاصوات ترتفع بالاقتراحات العملية .

ــ هيا بنا نكسر محلات بيع الاسلحة !

ــ بل هيا الى الانفاليد ، ففي مخازنه عشرون الف بندقية .

ــ بل الى دار البلدية ، فان «سر التجار» لديه مفاتيح مخازن الحرس الاهلي ، وبها طلقات وبنادق لا تحصى .. ــ الى البلدية ! الى البلدية!

واتجه الناس الى دار البلدية من سبل ثلاثة . اما بيو فلم يتجه وجهتهم ، فقال له بيتو متسائلا :

ــ ونحن الى اين نذهب يا مسيو بيو ؟

ــ كان بودي ان اذهب مع هؤلاء الابطال . ولكنني لم آت الى باريس كما تعلم لكي أقاتل ، بل لأحصل على عنوان الدكتور جيلبير . لهذا يجب ان اذهب اولا الى كلية لويس الكبير حيث يتعلم ابنه .. حتى اذا لقينا الدكتور ، القينا بانفسنا من جديد في المعركة ، بقلب خالص وذهن متفرغ. فاذهب الان اولا واحصل على مزراق او بندقية احد القتلى ، وها انا احمل البندقية التي أهدانيها دوق اورليان، وهيا بنا الى كلية لويس الكبير.

ولم يحتج بيتو الى تكرار الاوامر ، بل انقض على اقرب قتيل من فرسان الحرس الالماني فانتضى سيفه الطويل وبندقيته، ثم تبع المسيو بيو.

ولم يصادفهما في طريقهما اي عائق في بادىء الامر . الى ان بلغا الارصفة ، فاذا الحرس الالماني قد عاد بنجدات قوية لكي يأخذ الثأر لقتلاه ، فاضطرا للهرب بين اشجار التويلري حتى الفجر ، ثم تسربا متسللين قاصدين كلية لويس الكبير .

وفي الطريق كانت جموع الناس تملأ كل ركن ، وفي وسط كل مجموعة من الرجال والنساء واحد من جنود الحرس الفرنسي يدربهم على كيفية اطلاق البندقية .. والجميع في حماسة شديدة وتصميم راسخ ، يتدربون ، ويقيمون المتاريس بأمتعة البيوت والاحجار .

واخيرا وصل صديقانا الى كلية لويس الكبير ، فاذا بها في حالة فوضى تامة ، فقد هاج التلاميذ وصاروا ضد الاساتذة وطردوهم من البناء واقفلوا البوابة .. وقد صادف لحظة وصول بيو وبيتو ان كان الاساتذة الافاضل يهاجمون البوابة ويهزونها صائحين متوعدين فصاح بيو بصوت جهوري من خلال قضبان البوابة :

ــ من منكم هو الطالب سباستيان جيلبير ؟ ــ انا ..

وكان صاحب هذا الجواب فتى في الخامسة عشرة جميل الخلقة يكاد يحسبه الناظر اليه فتاة . فقال بيو :

ـ اقترب مني يا ابني . ـ ماذا تريد مني ؟

وصاح مدير الكلية وقد راى بيو وبيتو يحملان السلاح وقد تلطخا بالدم : ـ اتريد ان تاخذاه معكما ؟

ـ ناخذه ؟ اناخذ ابن الدكتور جيلبير لنعرضه لكل هذه الكوارث ؟ مستحيل ! فصاح المدير :

ـ هل سمعت هذا الكلام يا سباستيان ؟ هؤلاء اصحابك انفسهم لا يوافقون على خروجك في هذا الظرف ..

ـ كلا يا سيدي . احتجز زملائي اذا شئت ، اما انا فلا بد لي من الخروج للاشتراك في الثورة !

ـ ارجو منك يا سباستيان ..

ـ كلا ! لست مثل سائر تلاميذك ، فان لي أبا بين أيدي الطغاة ، ولا بد لي من تخليصه . فصرخ بيو صرخة عظيمة قائلا :

ـ بين أيدي الطغاة ؟ تكلم يا ولدي ! اين ابوك ؟

فصاح كثيرون من التلاميذ قائلين :

ـ انه يقرر الحقيقة . فوالده مقبوض عليه . ولما كان الشعب بصدد فتح السجون ، فهو يأمل ان يفتح الشعب سجن ابيه ويطلقه ايضا .

الى الباستيل

انطلق بيو ، وراح يختلط بالجماهير بحمسها ويوجه انظارها الى حصن الباستيل وما يرمز له من الطغيان والمظالم . حتى اذا كان صباح يوم ١٤ من يولية شوهد بيو يتقدم حوالي ثلاثة الاف باريسي من الدهماء مسلحين بالسكاكين والحراب والبنادق . فقد كان معظمهم من الجزارين والتجار في سوق خضر باريس . وكانوا جميعا يصيحون :

ـ الى الباستيل ! الى الباستيل !

اما بيو نفسه فكان يقلب الامر في راسه على وجوهه المختلفة . فهو يدرك مبلغ ما في هذه المجازفة من خطورة . وكم سمع ضحكات سخرية ممن عرض عليه فكرته ، فالباستيل معروف عنه انه حصن امنع من عقاب الجو ، فهو ممتنع على اي قوة مهاجمة مهما كانت قوية مستعدة .. فما

بالك بجماعة من الغوغاء ؟

لذلك كان اول ما فكر فيه هو الحصول على الاسلحة الكافية ، فوجه الجماهير اولا الى ميدان البلدية ، وهناك عين مساعدين ونوابا ترك لهم قيادة الشعب او بالاحرى كبح جماحه فلا يقدم على تصرفات خرقاء ، ريثما يقابل سر التجار او رئيس مجلس البلدية وعمدة باريس ..

وصعد بيو بكل جسارة سلم البلدية الضخم ، وقال لاحد الحجاب :

ـ من هو الرئيس هنا ؟

ـ انه سر التجار ، عمدة باريس المسيو دي فليسيل ...

ـ المسيو دي فليسيل ؟! هو من اعداء الشعب اذن !

ـ انه رجل ممتاز موهوب يا سيدي ..

ـ اذن قدني اليه .. فاني اريد مقابلته ..

ـ مستحيل يا سيدي ، فهو مشغول جدا في هذه الساعة .

ـ مشغول ؟ وفيم الانشغال ؟

ـ انه يعد الان قائمة بالقوة المسلحة «الميليشيا» التي ستؤلفها المدينة.

ـ عظيم جدا ! انا ايضا أؤلف الان ميليشيا من المدينة . وبما ان تحت امرتي ثلاثة الاف رجل فعلا ، فانا في موقف لا يقل عن موقف المسيو دي فليسيل الذي لم يجند الى الان جنديا واحدا .. فاسمح لي بمقابلة المسيو دي فليسيل فورا .. وانظر من النافذة اذا كنت في شك من امري.

والقى الحاجب نظرة سريعة من النافذة ، فرأى الميدان يموج بالناس الثائرين ، فأسرع يبلغ المسيو دي فليسيل حقيقة الموقف ، وأشار له على القوة المتجمعة في الميدان ، فامتلأ العمدة بشعور الاحترام للرجل الذي تحت قيادته كل هذه التجريدة ، فغادر حجرة المكتب وخرج الى البهو ليقابله بنفسه ، فلما راى بيو ادرك انه هو ، وابتسم له قائلا :

ـ انت الشخص الذي طلب مقابلتي . اليس كذلك ؟

ـ انت المسيو فليسيل سر تجار باريس فيما اعتقد ؟.

ـ أجل يا سيدي . فهل من خدمة استطيع ان أؤديها لك ؟ وكل ما أرجوه أن تتكلم باختصار ، لان ذهني مشغول .

ـ يا سيدي العمدة الصالح . كم قوة في فرنسا ؟

ـ اظن يا سيدي العزيز انك تريدني ان اجيب على هذا السؤال من وجهة نظر الشعب . اليس كذلك ؟

ـ بل من وجهة نظرك شخصيا .

ـ لو انك يا سيدي سألت مسيو بايي رئيس الجمعية الوطنية هذا

السؤال لاجابك ان في فرنسا قوة واحدة هي الجمعية الوطنيـــة . واذا سالت المسيو دي درو بريزيه مدير التشريفات لاجابك ان في فرنسا قوة واحدة ايضا ، ولكن هذه القوة هي الملك .

ـ واي هذين الرايين رايك يا سيدي العمدة ؟

ـ ان رايي ولاسيما في اللحظة الراهنة ان هناك قوة واحدة . وهذه القوة ليست الملك وليست الجمعية الوطنية ، وانما هي الشعب !.

ـ الشعب ؟

ـ نعم الشعب . واعني بذلك حضرات السادة الموجودين الان فـــي الميدان ومعهم العصي والسلاح .

ـ قد تكون على حق يا مسيو دي فليسيل . ويظهر ان من قال لي انك رجل ممتاز لم يكن مخطئا .

فانحنى مسيو دي فليسيل شكرا لهذه التحية ، ثم قال :

ـ واي قوة من هذه القوى الثلاث تريد ان تفاوض ؟

ـ اعتقد يا حضرة العمدة انه اذا كان لدى المرء طلبات ، فالاولى به ان يتوجه بها الى الله لا الى أوليائه .

ـ هل افهم من هذا انك تريد التوجه لمقابلة الملك . وماذا ستقول له ؟

ـ ساطلب منه اطلاق سراح الدكتور جيلبير الموجود حاليا في الباستيل .

ـ الدكتور جيلبير ؟ انه مؤلف كتب سياسية . اليس كذلك ؟

ـ بل قل انه فيلسوف يا سيدي .

ـ كلاهما واحد . واظن ان الفرصة التي امامك ضعيفة جدا فليس من المحتمل ان يجيبك جلالة الملك الى هذا الطلب .

ـ ولماذا ؟

ـ اولا لان الملك ما دام قد ارسل المسيو جيلبير الى الباستيل ، فلا بد ان لديه من الاسباب ما حداه الى ذلك .

ـ معقول . فعلى جلالته ان يبسط لي اسبابه ، وسابسط له انـــا اسبابي لطلب اطلاق سراحه .

ـ يا عزيزي السيد بيو ، الملك مشغول جدا فـــي الوقت الحاضر ، واشك كثيرا في انه سيسمح لك بالمقابلة .

ـ اوه ! اذا لم يسمح لي بالمقابلة ، فساجد طريقة اقابله بها بـــدون استئذان جلالته .

ـ جائز . ولكن بمجرد دخولك ، فستجد المسيو دي درو بريزيه مدير التشريفات الذي سيتولى القاءك من فوق السلالم .

ـ آه . يلقيني ايا من فوق السلالم ؟

ـ طبعا . فقد صرح بانه يريد ان يفعل هذا بالجمعية الوطنية مجتمعة، صحيح انه لم ينجح في تنفيذ هذه الامنية بالنسبة للجمعية الوطنيــــة مجتمعة ، ولكن هذا يا صاحبي سبب اقوى لاشتداد غيظه ، فيصب انتقامه على ام راسك .

ـ اذن سالجأ في هذه الحالة الى الجمعية الوطنية في فرساي .

ـ ولكن الطريق الى فرساي مسدود .

ـ ساذهب واقتحمه برجالي الثلاثة الآلاف .

ـ احذر يا سيدي العزيز . فستجد في ذلك الطريق على استعداد لمقابلتك انت ورجالك حوالي خمسة الاف جندي سويسري ، وفي صحبتهم نحو ثلاثة الاف جندي نمسوي، يلتهمونكم في لقمة واحدة وفي غمضة عين.

ـ يا للشيطان ! ماذا ينبغي ان اصنع اذن ؟

ـ اصنع ما بدا لك ، ولكن ارجو منك ان تسحب رجالك من الميدان فانهم يدقون الارض ببنادقهم وعصيهم ، ومن تحت أرجلهم قبو البلديــة وفيه ثمانية الاف رطل من البارود تلتهب لأقل شرارة ، فتنسفنا جميعا.

ـ في هذه الحالة لن أتجه الى الملك ولا الى الجمعية الوطنية .

ـ الى من ستتجه اذن؟ ـ الى الامة، لنستولي على الباستيل مباشرة.

ـ وبماذا تستولي عليه يا سيدي ؟

ـ بالثمانية الاف رطل من البارود الموجودة في قبو البلدية .

ـ انك تمزح ولا شك .

ـ لست مازحا . المفاتيح من فضلك والا استدعيت رجالي .

فاصفر وجه دي فليسيل ، ولكنه كظم غيظه وقال :

ـ الواقع انك تسدي الي خدمة جزيلة بتخليصي من هذه المسئوليــة الثقيلة . وما دامت هذه رغبتك فاني سآمر بتسليم المفاتيح اليك اذا كنت مصمما على اخذ هذا البارود .

ـ اني مصمم جدا . ـ وهل ستوزعه بنفسك ؟

ـ بنفسي . ـ ومتى ؟

ـ في هذه اللحظة .

ـ لنتفاهم من فضلك ، لدي الان عمل قد يستغرق ربع ساعة وارجو الا تبدأ في توزيع البارود الا بعد خروجي من هنا . فقد تنبأ لي فلكي انني سأموت ميتة عنيفة ، وانا أعترف لك انني لست ميالا الى ان يكـــون ذلك بالانفجار .

ـ لك ما تريد . سننتظر ربع ساعة اذن. ولكن لي مقابل رجائك رجاء.
ـ ما هو ؟ ـ ان تقترب معي من هذه النافذة .
ـ ولماذا ؟ ـ اني اريد ان اجعل لك مكانة شعبية .
ـ وباي وسيلة ؟
ـ سترى ...
وصحب بيو العمدة الى النافذة التي كانت مفتوحة ، ثم صاح في الجمهور المجتمع في الميدان بصوته العريض قائلا :
ـ ايها الرفاق ! الا تزالون مصرين على الاستيلاء على الباستيل .
فاجابه ثلاثة الاف صوت قاصفة كالرعد :
ـ الى الباستيل الى الباستيل .
ـ ولكنكم بحاجة الى بارود . أليس كذلك ؟
ـ نريد البارود .. نريد البارود .
ـ ها هو حضرة العمدة قد منحكم كل البارود الموجود في اقبية البلدية.
فتعالت الهتافات بحياة حضرة العمدة حتى اغرورقت عينا مسيو دي فليسيل بالدموع ، فالتفت اليه بيو هامسا بلهجة ذات مغزى :
ـ والان يا حضرة العمدة اذا خطر لك ان تلعب بنا ، فؤلاء الذين هتفوا لك بطول الحياة هم الذين سيتولون تقصيرها بايديهم . مفهوم ؟
ـ هاك المفاتيح يا سيدي . فان لديك طريقة حاسمة في الاقناع .
ـ هناك طلب اخر بسيط جدا .
ـ ما هو يا ترى ؟
ـ هل لك معرفة بحاكم الباستيل المسيو دي لوناي ؟
ـ انه من اصدقائي ..
ـ في هذه الحالة لا شك انه يهمك الا يحدث له سوء .
ـ طبعا .. ـ اذن في يدك ان تمنع عنه هذا السوء .
ـ وكيف ذلك ؟
ـ بان تحاول اقناعه بان يسلم لنا حصن الباستيل دون مقاومة . او على الاقل يطلق سراح الدكتور جيلبير .
ـ لا اظنك تتصور ان لي من التأثير على المسيو دي لوناي ما يجعله يسلم اليك قلعته او سجينا من سجنائه ؟
ـ ساتولى انا الاقناع . وكل ما اطلبه منك ان تعطيني خطاب تقديم الى المسيو دي لوناي كي اتمكن من مقابلته .
ـ ولكن تدخل الباستيل وحدك ؟ ـ نعم وحدي ..

ـ وأنذرك اذا دخلت وحدك فربما لن تخرج ابدا .
ـ قبلت على مسئوليتي الخاصة .
ـ اذن ساكتب لك الان خطاب التوصية .
وتناول العمدة ورقة وكتب فيها هذه السطور :
«حضرة الحاكم
نحن رئيس تجار مدينة باريس ورئيس بلديتها ، نبعث اليك حامل هذا المسيو بيو ، للتباحث معك في أمور تهم مدينتنا .
١٤ يوليه سنة ١٧٨٩ دي فليسيل»
وما ان تسلم بيو الورقة ، حتى أسرع العمدة بركوب عربته والابتعاد عن الحي ، وبدأ بيو في توزيع البارود على رجاله الثلاثة الآلاف .

في ساحة الباستيل

لقد كان دي فليسيل صادقا في قوله ان في اقبية البلدية ثلاثة الاف رطل من البارود . وقد تولى بيو هو ومارا ـ الذي كان قد تعرف به في اليوم السابق اثناء ارتياده المجتمعات الثورية ـ عملية توزيع البارود على الجنود . وقد نجحا في ضبط عواطف الناس وإلزامهم بالهدوء ومراعاة النظام وأن ينتظر كل واحد منهم دوره . وقد خص كل مواطن نصف رطل من البارود وحوالي اربعين طلقة .

ولما انتهى التوزيع على هذه الصورة اتضح ان البنادق قليلة العدد جدا بالنسبة للمواطنين فلم يكن هناك الا نحو خمسمائة يحملون بنادق صالحة للاستعمال .

واثناء عملية التوزيع تسرب عدد من المواطنين المتحمسين في طلب السلاح الى حجرات البلدية العليا حيث وجدوا النواب يتباحثون في تكوين الحرس الاهلي . وكانوا قد قرروا ان يكون عدده ثمانية واربعين الفا .. وكان هذا الجيش غير موجود الا على الورق ، ومع هذا قد شرع النواب يتشاجرون على اسم القائد العام ..

وفي هذه اللحظة عاد العمدة ، لانه لم يسمح له بالذهاب الى فرساي حيث كان يعتزم ، فالتف الناس حول عربته هاتفين ..
ـ السلاح يا عمدة . نريد السلاح !
ـ ولكن ليس عندي سلاح .. اذهبوا الى الترسانة .

وذهب نحو ستة الاف الى الترسانة فوجدوها خاوية ، فعادوا ثائرين الى دار البلدية ، ففتح لهم جميع الابواب فلم يجدوا شيئا ..

وكان توزيع البارود والطلقات قد انتهى ، فقال مارا لبيو :

ــ اسمع يا صاحبي . توجه انت الى الباستيل ، اما انا فسأذهب الى مكان ما ، وسأبعث اليك هناك بعشرين الف مواطن .

ثم خرج مارا الى الناس ، فوقف على مقعد وصاح بهم :

ــ انا مارا ، فاستمعوا لي !.

فساد الصمت واشرأبت الاعناق ...

ــ اتريدون اسلحة تستولون بها على الباستيل ؟

ــ اجل . اجل . اجل . نريد السلاح ..

ــ اذن تعالوا معي آتكم بالسلاح .. ــ الى اين ؟

ــ الى الانفاليد ايها الرفاق . فتعالت هتافات الجماهير :

ــ الى الانفاليد ! الى الانفاليد !

ومال مارا على اذن بيو قائلا :

ــ اذهب انت الان . ولكن ربما احتجت الى مدد قبل وصول رجالي، وفي هذه الحالة أعط هذه الورقة للمواطن «جونشون ...» يقدم لـــك المساعدة المطلوبة .. ــ جونشون ؟ ومن هو ؟

ــ لست بحاجة الى اكثر من ذكر اسمه لاول عامل تقابله ، فانه زعيم العمال .. ولترافقك عناية الثورة وبركات الحرية !

***

وسار بيو مع بيتو نحو الباستيل، فوجدا في الطريق جماعات صاخبة ثائرة ، فلما وصل الى الحصن هاله منظره ، وما فيه من بنادق مصوبـــة بالآلاف من ثقوبه نحو الجماهير ، فقال بصوت مسموع :

ــ لقد صدق قولهم .. لن نستطيع دخول هذا الحصن ..

واذا صوت من خلفه يقول له :

ــ ولماذا لا يمكن ذلك ايها المواطن ؟

فالتفت بيوليري وراءه شخصا غريب الشكل ، وحشـــي السحنة ، لباسه اسمال ، ولعينيه بريق خاطف كأنهما جمرتان ، فقال له :

ــ لماذا ؟ لانه لا يبدو ممكنا ان يستولي احد على كتلة صماء قوية مثل هذه عنوة واقتدارا ..

ـ يا صاحبي ، ان الاستيلاء على الباستيل ليس عملا حربيا ، وانما هو مسألة ايمان .. آمن يكن لك ما تريد ..

فهز بيو رأسه وتحسس جيبه باحثا عن خطاب العمدة الذي يقوم به الى حاكم الباستيل ، وقال :

ـ صبرا . صبرا ..

ـ آه ! انت بدين .. ويبدو انك فلاح .. لهذا تريدنا ان نصبر .

ـ انا فلاح فعلا ..

ـ اذن لا عجب . فقد كنتم دائما تنعمون بتغذية جيدة ايها الفلاحون ، فلا بأس عليكم من الصبر والانتظار . اما نحن ، فانظر وراءك لترى هـذا الجيش من الجياع الذين جفت عروقهم ، فانك تستطيع ان تحصي ضلوعهم من خروج ثيابهم المهلهلة .. ثم سلهم بعد ذلك هل يطيقـــون الصبر ، او يفهمون مزية هذه الكلمة البغيضة البلهاء .

فلما سمع بيتو هذا الكلام الموجه الى بيو ، همس في اذنه قائلا :

ـ هذا وايم الحق كلام مليح ، ولكنه يخيفني..

ـ ولكنه لا يخيفني انا !..

ثم التفت الى الرجل الغريب قائلا :

ـ ابي اقول صبرا ، ولكني لا أسالك الصبر الا ربع ساعة فقط .

ـ ربع ساعة ؟ ليس هذا وايم الحق كثيرا .. ولكن ماذا تراك تصنع من الان الى نهاية هذه الربع ساعة ؟

ـ في هذا الوقت اكون قد زرت الباستيل وعرفت عدد رجال حاميته، ونوايا حاكمه .. واكون كذلك قد عرفت مداخله .

ـ هذا اذا عرفت بعد ذلك مخارجه !

ـ وهبني لم استطع الخروج ، فان هناك من سيخف لاخراجي .

ـ ومن هو هذا الرجل الذي سيخرجك .

ـ انه جونشون ، زعيم العمال وميرابو الشعب .

ـ فتراجع الرجل الغريب ماخوذا والتمعت عيناه وصاح به :

ـ هل تعرف جونشون ؟

ـ كلا .. لم اقابله بعد ..

ـ اذن ماذا تعني بكلامك هذا ؟

ـ ساتعرف به الان. فقد قيل لي ان اول من اصادف من العمال في ساحة الباستيل يستطيع ان يدلني عليه .. فخذني اليه من فضلك .

ـ وماذا تريد منه ؟ ـ اريد ان اسلم اليه هذه الورقة ..

ـ ممن ؟ ـ من مارا ، الطبيب .
ـ من ماذا ؟ أتعرف مارا ؟ ـ لقد فارقته منذ لحظة .
ـ اين ؟ ـ في دار البلدية .
ـ واين ذهب بعد ذلك ؟
ـ الى الانفاليد كي يسلح عشرين الف مواطن ويرسلهم الينا هنا .
ـ في هذه الحالة اعطني الورقة . انا جونشون !
نبهت بيو ، وساله مفكرا : ـ اانت حقا جونشون ؟
فصاح جونشون في الناس من حوله :
ـ ايها الرفاق . ان هنا انسانا لا يعرف جونشون ، فقولوا له من يكون جونشون !
فصاح الجميع هاتفين بصوت كالرعد : ـ يعيش جونشون !..
واعطاه بيو الورقة فقراها ثم قال :
ـ ايها الرفاق ! ان الطبيب مارا يوصينا بهذا الرفيق ، فيجب ان نثق به . وسنحقق متعاونين عملا عظيما ..
فصاح بعض الواقفين :
ـ وماذا تنويان ان تصنعا ؟ ـ سنستولي على الباستيل!
فسر بيو لتصميمه وقال له : ـ بكم تستطيع ان تمدني ؟
ـ بثلاثين الفا او نحو ذلك .
ـ ومعنا الان عشرة الاف ، وسيأتينا من مارا مدد قوامه عشرين الفا .. فالمجموع خمسين الفا .. هذا والله عدد كاف للنجاح . والا فلن ننجح على الاطلاق . ـ بل سننجح حتما .
ـ اعتقد هذا . وسأذهب الان وحدي لمقابلة حاكم الباستيل كي افاوضه في التسليم . فاذا سلم الحصن حقن الدماء ، واذا لم يسلمه فدماء الالاف التي ستسيل أنهارا ستكون على رأسه ..
ـ اتفقنا . اذهب الان وصاحبك التوفيق ..

الباستيل وحاكمه

حاولوا عند المدخل الاول للباستيل ان يمنعوا بيو ، بيد انه ابرز التصريح الذي اعطاه العمدة اياه ، فتركوه يمر . ولكنه لاحظ ان بيتو يتبعه ، فتوقف في طريقه وقال له :
ـ انت لا تحمل تصريحا ، فابق في الخارج كي تذكر بي الشعب اذا

طالت غيبتي وتدفعهم الى الثأر لي .

ـ هذا معقول . وكم من الوقت يجب ان انتظر قبل ان اثير الشعب ؟

ـ ساعة كاملة .   ـ والصندوق ؟ صندوق الدكتور جيلبير؟

ـ لقد أذكرتني . اذا لم أخرج من الباستيل فقل للدكتور جيلبير ان الصندوق قد سرق ، واذكر له جهودي في سبيل البحث عنه ، وانني لم اضع خطة اقتحام الباستيل الا من اجل اطلاق سراحه .

وافترقا بشجاعة وتجلد ، فاجتاز بيو اول نطاق من الحراس فلما وصل الى القنطرة المتحركة كان عليه ان يبرز الترخيص مرة اخرى ، كي يسمحوا له بالدخول ، فلما ابرزه فتحوا البوابة الداخلية ، فوجد من ورائها الحاكم واقفا بنفسه لمراقبة الحالة في الفناء المخصص عادة لنزهة السجناء . وتطل على ذلك الفناء ثمانية أبراج صماء خالية من النوافذ تماما .. وظلال الابراج تمنع الشمس عن ارض الفناء ، فهي شديدة الرطوبة كثيرة الاوحال ، كانها قاع بئر متسع .

وكان المسيو دي لوناي حاكم الباستيل رجلا في الخامسة والاربعين من عمره ، مرتديا حلة رمادية اللون محلاة بوشاح القديس لويس الاحمر اللون ، وفي يده عصا تخفي بداخلها سيفا .

والمسيو دي لوناي هذا رجل شرير يكن الناس له من البغض مثل الذي يكنونه للسجن نفسه ! وقد توارث آل دي لوناي وظيفة حاكم الباستيل أبا عن جد ، حتى صار مقترنا باسمهم اسم ذلك السجن .

***

والواقع ان وظيفة حاكم الباستيل وظيفة تجارية ، فالحاكم فندقي وبائع طعام يرتدي الزي العسكري .. فهو يتناول من نزلائه المساجين اجرا على طعامهم ، يختلف بحسب ثروتهم ومركزهم ، ومعظمهم من خيار الناس . وهو كذلك يبيع وظائف السجن لمن يدفع اكبر ثمن ، وعلى الموظف بعد ذلك ان يحصل على راس المال والفائدة الدسمة من دم المساجين ! ولهذا يبلغ ايراد حاكم الباستيل من مرتبه ومكاسبه الاخرى اكثر من مائة وعشرين الفا ذهبا .. ودي لوناي الحالي أبخل اهل بيته واكثرهم شحا وتقتيرا ، لهذا هو ابغضهم وأغناهم .

ومن نوادر بخله وتدبيره ، ان له بحكم وظيفته الحق في استيراد مائة برميل نبيذ الى باريس وبدون جمارك ، ليقدم الشراب للسجناء .

فكان دي لوناي يبيع ذلك الحق لتاجر انبذة يستورد بها احسن الانواع ، ويشتري هو بعشر المكسب مائة برميل من الخل يقدمهـــا للسجناء تحت اسم النبيذ !

وكان المتنفس الوحيد للسجناء حديقة صغيرة يتمتعون فيها بالشمس والهواء والازهار ، فاجرها المسيو دي لوناي لبستاني نظير خمسين جنيها في السنة ، وحرم بذلك السجناء هذه المتعة الوحيدة .

يضاف الى هذا انه كان يفعل اي شيء لمرضاة سجنائه الاثرياء مـــا داموا يدفعون ثمن ما يريدون .. فهو مثلا كثيرا ما يقود بنفسه بعض سجنائه الى بيوت عشيقاتهم ويجلس في الانتظار حتى يفرغوا من غرامياتهم فيعود بهم الى الزنزانات .. نظير مبلغ محترم !

ولكن رغم كل هذه النقائص ، كان الرجل شجاعا !!

فهو منذ اليوم السابق يشعر بهدير العاصفة من حوله ، ولكنه مع هذا بقي هادئا ، وان كان شاحب الوجه ..

وهو الان سيواجه مندوب الشعب الثائر اعزل من السلاح — لان بيو كان قد اعطى بيتو بندقيته قبل ان يفترقا — في حين انه يملك تحت امرته في الباستيل اربع بطاريات مدافع مستعدة للاطلاق في اي لحظة ، عدا حامية كبيرة من السويسريين .

وكانت عين بيو تدور كعين النسر فتلاحظ وتسجل كل شيء ، فلاحظ نذر الشر في وجه الحاكم ، ولاحظ اقبال رجال المدفعية على اعـــداد القذائفبحماسة وهمة، وأن الحراس كانوا شاكيالسلاح علىأهبة الضرب.

ووقف دي لوناي في مكانه ، الى ان وصل اليه بيو ، فقال له :

— ماذا تريدون مني هذه المرة ايضا ؟

— هذه المرة ايضا ؟ ولكن لا اعتقد انني قابلتك قبل الان ..

— لقد فارقني منذ قليل مندوب مثلك من البلدية .

— وماذا كان سبب حضوره ؟

— طلبوا مني وعدا الا اكون البادىء باطلاق النار .

— وقد وعدت بذلك طبعا .. — أجل ..

— وهل هذا كل ما طلبوا ؟

— طلبوا ايضا ان اسحب المدافع الى الداخل لتهدئة روع الشعب .

— وقد اجبت هذا الطلب ايضا، اعلم ذلك ، فقد رايتهبعيني وأنا قادم.

— والان . اتظنون انني فعلت ذلك خوفا منكم ؟ وماذا تريد الان ؟

— لقد اتيت الى هنا نيابة عن الشعب .

ـ وماذا تريد او ماذا يريد حضرة الشعب ؟
ـ بكل بساطة يريد ان تسلم لنا الباستيل .   ـ ماذا تقول ؟
ـ اقول انني جئت باسم الشعب اطلب ان تسلموا الباستيل للشعب.
فهز دي لوناي كتفيه ونظر الى ضباطه قائلا :
ـ الحق ان الشعب حيوانات غريبة الاطوار! وماذا يريدون ان يصنعوا بالباستيل بعد ان يتسلموه ؟
ـ يريدون هدمه ومحوه من الوجود اطلاقا !
ـ ولماذا بالله ؟ ماذا فعل الباستيل بالشعب حتى يكرهه ؟ هل هـذا سجن شعبي ؟ لو عقل الشعب لبارك كل حجر في الباستيل . اذ من الذين يضمهم سجن الباستيل : انهم الفلاسفة ، والعلمـاء ، والقواد ، والارستقراطيون ، والوجهاء والوزراء والامراء .. يعني اعداء الشعب .
ـ آه ! هذا يدل يا حضرة الحاكم ان الشعب ليس أنانيا !
ـ اسمع يا صاح ! اعلم اولا ، وليعلم الشعب معك ان لدي من البارود ما يكفي لا لنسف الباستيل وحده ، بل ولنسف نصف حي سان انطـوان على الاقل . فلن أسلم الباستيل سليما . كل هذا معلوم لنا جيدا .
ـ وانظر الان الى هذه البطاريات الاربعة . انها محمية داخل برج ، يحميه خندقان عليهما قنطرتان متحركتان ، ومن ورائهما بوابة حديدية م
ـ انا لا ازعم يا حضرة الحاكم ان الباستيل سيء التحصين ، ولكنـي اقول فقط انه سيهاجم هجوما عنيفا جدا .
ـ ثم انظر الى هذه الجدران والاسوار ، ان سمكها اربعون قدما عند الاساس ، وخمسة عشر قدما عند القمة .. فمهما كانت أظافر الشعب قوية حادة ، فلن تستطيع هدم الباستيل !
ـ انا لم اقل ان الشعب سيهدم الباستيل قبل ان يستولي عليه ، ولكن سيستولي عليه اولا ثم يهدمه بعد ذلك ..
ـ ثم انظر الى هذه المدافع . انها لم تسحب من مواضعها كما ظننت، بل سحبت الى الوراء فقط ، ويمكن دفعها الى اماكنهـا في اي وقت بغير عناء .   ـ سأخبر الشعب ان المدافع لم تنزل عن مواضعها ..
ـ اخبره . ولكن ان مدافع الملك هنا بامر الملك ، ولن تزال عـن مواضعها الا بأمر من جلالته !
ـ يا مسيو دي لوناي ان جلالة الملك الحقيقي هو الذي افاوضك الان باسمه . وهو واقف هناك في الميدان ..
ـ سيدي ! قد تعترف انت بملكين ، اما انا دي لوناي حاكم الباستيل

فا اعرف في فرنسا الا ملكا واحدا ، هو لويس السادس عشر ، الذي كل شيء وكل انسان هنا باسمه وتحت امره .

ــ انت اذن لست مواطنا يا مسيو دي لوناي . .

ــ انا نبيل فرنسي .

ــ آه لقد نسيت انك جندي وتتكلم بلغة الجنود .

ــ صدقت فانا جندي ولا اعرف الا تنفيذ الاوامر .

ــ اما انا يا سيدي فمواطن .. وواجبي كمواطن يتعارض مع اوامرك كجندي . فيجب على احدنا ان يموت ، اما الجندي واما المواطن .

ــ هذا كله محتمل يا سيدي .

ــ انت اذن مصمم على اطلاق النار على الشعب ؟

ــ كلا ، لن اطلق عليهم النار الا اذا اطلقوا هم النار اولا ، فعندما تصدر اول طلقة من جانبكم ستعود المدافع فورا الى اماكنها وساصوبها بيدي هاتين واشعلها .

ــ انت ؟ ــ اجل انا .

ــ لو تاكدت من هذا لما سمحت لك بالبقاء الى ان تقترف هذه الجريمة.

ــ الم اقل لك يا سيدي انني جندي لا يعرف الا اوامره ؟

ــ انظر اذن الى الميدان فسترى الذين ستتلقى منهم الاوامر بعد اليوم.

واشار بيو بيده الى الجموع الحاشدة التي كانت تسد الميدان ، فقد وصل في هذه الاثناء الطبيب مارا على راس عشرين الفا مسلحين من الانفليد ، كما وصل جونشون على راس ثلاثين الفا اخرين . فلما راى دي لوناي ذلك اصفر وجهه وصاح :

ــ الى مدافعكم ! ثم اتجه نحو بيو متوعدا فقال :

ــ وانت ايها التعس . لقد اتيت تضيع الوقت معي في مفاوضة ليكسب زملاءك الوقت فيتكتلوا ويتجمعوا وينظموا صفوفهم . انك تستحق ان اقذف بك من فوق الاسوار . ولكن لن ادنس يدي بدمك . فاخرج الى اصحابك وبشرهم بسوء المصير .

وفي هذه اللحظة تقدم ضابط ووجه الخطاب الى بيو قائلا :

ــ ارجو يا سيدي ان تطل على الجماهير بنفسك ليشاهدوك ، فقد شاع بينهم انه قد حاق بك سوء . وهم يصيحون باسمك .

فقال دي لوناي :

ــ اطل عليهم يا سيدي ليعلموا انني رجل شريف لا اخدع ولا اغتال الرسل .

فاطل عليهم بيو ولوح لهم بيده . فتعالى الهتاف باسمه مقرونـــا بالتهليل . ثم امره دي لوناي بعد ذلك قائلا :

ـ والان باسم الملك يا سيدي آمرك بمغادرة الباستيل !

ـ وأنا باسم الشعب أناشدك التعقل والتسليم !

ـ سحقا للشعب .

ـ باسم اخوانك في الوطن والانسانية أناشدك حقن الدماء .

ـ اخواني ؟ هؤلاء الذئاب العادية والكلاب النابحة اخواني ؟ انهم قد يكونون اخوانك انت ، اما انا فليسوا لي باخوة .

ـ انها الاف الارواح يا سيدي الحاكم !

ـ وانه شرفي العسكري .

فالتفت بيو الى الحرس وجنود الحامية وصاح بهم :

ـ خلصوا انفسكم وسلموا الحصن ، فبعد عشر دقائق تكون الفرصة قد انقضت .

فثارت ثائرة دي لوناي وصرخ في وجهه قائلا :

ـ اخرج فورا ، والا فاني اقسم بشرفي ان آمر باطلاق النار عليك.

فعقد بيو ذراعيه فوق صدره وتبادل مع دي لوناي في نظرة نارية ثم سرق من البوابة الى الخارج .

المعركة الهائلة

كان الجمهور منتظرا على احر من الجمر ، وقد ارسلت عليه شمس يوليه المحرقة حرارتها الحامية ، فوق ما كان يتأجج في صدورهم مـــن نيران الحماسة والقلق . وكان جونشون هو الذي يتولى زمام القيادة . اما مارا فقد اختفى عن الانظار . وتقدم جونشون نحو بيو عندما ابصر به خارجا من الحصن ، وقال له :

ـ ما وراءك ؟ ـ الحق أن هذا الرجل شجاع حقا .

ـ شجاع ؟ ماذا تعني ؟ ـ أعني انه عنيد .

ـ هل لا يريد ان يسلم الباستيل ؟ ـ لن يسلمه ..!

ـ وهل سيصمد للحصار ؟ ـ اجل سيصمد للحصار .

ـ وهل تظن انه سيصمد طويلا ؟ ـ حتى الموت .

ـ ليكن له ما يريد ، موتا شنيعا .

ـ ولكن يهولني العدد الضخم جدا من المواطنين الذيـــــن ، تذهب ارواحهم هدرا في سبيل اقتحام الباستيل . فاني لا استحل لنفسي ذلك الحق الذي يخوله القواد لانفسهم ان يتسببوا في سفك الدماء بلا حساب في سبيل تحقيق غاياتهم العسكرية .

ـ اف لك ! ان في العالم من الناس اكثر مما ينبغي . بدليل انه لا يوجد في الدنيا من الخبز ما يكفي جميع اهلها .

ـ والخندق ؟

ـ هذه ليست عقبة ذات بال . فالنا سنحصل من بين صفوفنا على عدد هائل من الجثث يكفي لردم موضع كبير منه .

فلم يسع بيو امام هذه الحجج الجريئة سوى ان يقتنع . وفي هذه اللحظة اطل دي لوناي وثلاثة من معاونيه من فوق الاسوار ، فصاح بـــه جونشون قائلا : ـ ابتدىء !

فلم يجب دي لوناي ، واعطاه ظهره . وكان جونشون شخصا قـــد يحتمل التهديد والوعيد ، ولكنه لا يمكن ان يحتمل الاحتقار ، فرفـــع بندقيته الى كتفه ، وفي اللحظة التالية كان احد مرافقي حاكم الباستيل قد خر صريعا .

وكانما كانت هناك الاف من البنادق على اهبة الاستعداد في انتظار تلك الاشارة من بندقية جونشون ، فانطلقت دفعة واحدة وتركت آثارها الحمراء في جدران ابراج الباستيل الرمادية اللون من فعـــل السنين . واعقبت ذلك بعد لحظات انفجارات ضخمة ونيران قوية ، فقد بدات مدافع الباستيل تفتح افواهها ، وسمعت بين صفوف الجماهير صيحات الالـــم الفظيع والرعب الهائل .

لقد قذف الباستيل اول قنابله ، وتدرجت باول بقعة من الدماء ارض ساحته . وبدات المعركة الهائلة .

وكان التاثير لدى جماهير الشعب تاثيرا غريبا . لان الامة كانت تعودت في تلك الايام ان تفتح لها جميع الابواب وتجاب الى جميع المطالب . فكانت تلك القنابل بمثابة تذكير حي بأن قلعة الباستيل حصن لا ينال .

وسرعان ما اعقبت تلك القنبلة عشرات من طلقات البنادق اطلقهـــا الحرس السويسري في دقة واحكام على هدف مكون من كتلة بشرية قوامها خمسون الف نسمة .

وساد الصمت لحظة ، لا تعكره الا بضع صرخات وانات تنبعث من هنا وهناك ، وتحركات بين الجموع ، فقد كان الناس يلتقطون من على الارض

قتلاهم وجرحاهم ويجمعون اشلاءهم المتناثرة .

بيد ان الشعب لم يفقد أعصابه وحضور بديهته . فما كانت تظهر فوق الابراج رأس جندي سويسري الا وتوجه اليها مئات الطلقات ، فتصيب في الغالب أحجار السور الذي يحتمي وراءه ذلك الجندي . وأخيرا سئم الناس تصويب قذائفهم الى تلك الحجارة التي لا يؤثر فيها شيء . وهم يريدون ان يشبعوا شوقهم برؤية الدماء ، لا برؤية التراب .

وبدأت الاقتراحات تتوالى وتتناثر هنا وهناك ، وبيو يصغي اليها ويرى مبلغ ما فيها من بلاهة وتفاهة . ثم لمح فأسا في يد احد التجارين، فانتزعه منه واحتمى تحت باب بيت رفعه فوق رأسه وتقدم نحو القنطرة المتحركة ثم أعمل الفاس في سلاسلها حتى تحطمت ، والرصاص يئز من حوله ، فسقطت القنطرة فوق الخندق في دوي هائل ، وارتفع صياح الفرح من أفواه الالوف المؤلفة ، ثم اندفعوا نحو الفناء الخارجي مهللين مكبرين ، فكان ذلك الهتاف هو الذي اعلم دي لوناي نبأ ذلك الانتصار الشعبي الاول .

وكانت سرعة ذلك الهجوم كبيرة ومتدفقة بحيث لم تسنح الفرصة للحراس بمحاولة منعهم .

وأمر دي لوناي بطارياته الاربع فاكتسحت ذلك الفناء الاول بنيرانها ، فسقط اكثر من عشرين قتيلا . وبذلك دخلت المعركة في مرحلتها الحاسمة ، فصارت معركة حياة او موت . وكانت اكثر من عشرة الاف بندقية تطلق في وقت واحد حول جدران الباستيل فتحدث دويا هائلا . ثم لم تلبث بطارية من المدافع ان وصلت الى الميدان مع فريق من الحرس الوطني ، فاشترك دويها مع دوي البنادق في ارعاب المحصورين ، بحيث شعر الضباط ان جنودهم قد اخذت روحهم المعنوية في الانهيار ، فراحوا ينتزعون البنادق من ايدي الجنود ويتولون هم اطلاقها على الجماهير .

وفي هذه اللحظة ظهرت عند ابواب الباستيل جماعة من المواطنين المسالمين عزلا من كل سلاح ، لا يحميهم الا علم ابيض . فلما أبصر بهم الحاكم دي لوناي ، علم انهم وفد جاء للتفاوض في الهدنة او وقف القتال. فأسرع يأمر جنوده بالحذر .

وقد كان هذا الوفد مكونا من نواب الاقسام في بلدية باريس ، اذ انهم عندما علموا ببداية القتال قرروا التوسط لحقن الدماء .

وكانت المقترحات التي يحملونها ، ان يأمر دي لوناي بوقف اطلاق النار ، وان يضمن سلامة ارواح المواطنين ، في مقابل سلامة حياته

وحياة جنود حاميته .

وفي الفرصة التي هدأ فيها اطلاق النار حتى يدخل الوفد الى الحصن ، قسم الناس انفسهم جماعات على وجه السرعة لنقل الجرحى وجمع اشلاء القتلى . وقال بيو لجنشون :

ـ لقد اوقفت القلعة اطلاق النار ، فمر رجالنا ان يتوقفوا .

ـ لا جدوى من ذلك ، لانهم لن يطيعونا .

ـ ليكن ، ولكن واجب الشرف يحتم علينا ان نصدر ذلك الامر احتراما لأصول الحرب ، ما دمنا قد صرنا محاربين .

ـ ليكن لك ما تريده .

ثم كلف جونشون جماعة من مساعديه ان يتولوا تنفيذ هذه الاوامر بانفسهم ، فساد الصمت لحظة . ودقت ساعة الباستيل الثانية بعد الظهر . وكان الهجوم قد بدأ في الساعة الثانية عشرة . فمعنى ذلك انه استمر حتى الان ساعتين .

وتعلقت الانظار جميعا وفي مقدمتها أنظار جونشون وبيو . واستبد القلق حتى فرغ صبر الناس ، ولاسيما جونشون . فلما رأى ذلك بيو سأله قائلا : ـ ماذا يزعجك ؟

ـ يزعجني اننا اذا لم نستول على الباستيل في مدة ساعتين ابتداء من هذه اللحظة ، فان كل هذه الجهود تكون قد ضاعت عبثا ، ونكون قد خسرنا كل شيء . ـ ولماذا هذا الظن ؟

ـ لان البلاط الملكي يكون قد احيط علما بما حدث ، فتحضر النجدات من الجنود الالمان والسويسريين ونصير محصورين بين ثلاثة نيران .

فلم يسع بيو الا ان يعترف بوجاهة ذلك المنطق .

وأخيرا عاد وفد الهدنة ، وقد ظهر على وجوه أفراده جليا انهم لم يصلوا الى شيء من التوفيق . فلما لاحظ جونشون ذلك تهلل وجهه وصاح مبتهجا :

ـ الم اقل لك ؟ ان هذا الحصن ملعون مكتوب عليه التدمير .

ثم قفز من مكانه دون ان ينتظر حتى يستوضح اعضاء وفد الهدنة ، وصاح بالجماهير في صوت كالرعد القاصف :

ـ الى السلاح ايها الرفاق ! الى السلاح ! لقد رفض الحاكم حقن الدماء والاصغاء لصوت العقل !

والواقع ان الحاكم ما ان قرأ الرسالة التي حملها اليه الوفد من عمدة باريس المسيو دي فليسيل حتى قال لهم :

ــ يا حضرات السادة الباريسيين ! لقد أصررتم على القتال . اما الان فقد فات وقت المفاوضة والكلمة للسيف والمدفع دون غيرهما .

فألح اعضاء الوفد عليه ، وناشدوه الوطنية والانسانية ، بيد انه ابى واستكبر صائحا بهم في حنق شديد :

ــ اخرجوا من هنا او امرت باطلاق النار عليكم !

فاسرع اعضاء وفد الهدنة بالخروج . وكان دي لوناي هو البادىء هذه المرة بالعودة الى اطلاق النار ، وكانت القذيفة الاولى كافية لقتل ثلاثـــة اشخاص ، احدهم جندي في الحرس الفرنسي ، والاخر من اعضاء وفد الهدنة اما الثالث فمن الجمهور .

فلما راى الشعب مصرع عضو وفد الهدنة ، وهو الذي تجمع كافــة الشرائع المدنية والعسكرية على ان ذاته مصونة لا تمس وشخصيتـــــه مقدسة ، اشتدت الحماسة بين صفوفه ، وعاد اطلاق الرصاص مــــن الجانبين أعنف مما كان .

وفي هذه اللحظة تقدم نائب الحاكم نحو دي لوناي قائلا :

ــ سيدي . ليس لدينا مؤونة كافية .

ــ أعلم هذا .

ــ وليست لدينا ايضا أوامر باطلاق النار على الجمهور .

ــ عفوك يا دي لوم . ان الاوامر التي لدي أن احافظ على ابــــواب الباستيل مغلقة . وعلى هذا الاساس سلموني مفاتيح تلك الابــــواب . أليس كذلك ؟

ــ ان المفاتيح يا سيدي قد تستعمل للفتح كما تستعمـــل للاغلاق . وتذكر يا سيدي انه يجب عليك الا تتسبب في هلاك جميع الحامية دون ان تنقذ الحصن . انظر الى الميدان ترى الناس عدد النمل ، ومن تقتله منهم لا يؤثر في ضخامة عددهم .

ــ انك لا تتكلم كجندي يا مسيو دي لوم !

ــ ولكني أتكلم كفرنسي يا سيدي ، واكرر عليك ان جلالة الملك لـم يعطنا اوامر باطلاق النار ولاسيما المدافع . وكنت ارى ان تقبـل شروط العمدة التي أرسلها عن يد وفد الهدنة .

ــ هل أفهم من هذا يا مسيو دي لوم انك تعتبر شعب باريس هو القوة التي نتلقى عنها أوامرنا ؟

ــ في حالة عدم وجود أوامر صريحة من جلالة الملك .

فانتحى دي لوناي بنائبه جانبا وأبرز اليه ورقة مطوية هي خطـــاب

العمدة دي فليسيل الذي حضر به وفد الهدنة . فقرأ دي لوم في الورقة ما يأتي :

«اثبت ! اني ألهي الباريسيين بالوعود الخلابة ، فقبل انتهاء النهار سيصلك مدد من لدن جلالة الملك . دي فليسيل»

فقال دي لوم متعجبا :

ـ وكيف وصلك هذا الخطاب يا سيدي ؟

ـ داخل الخطاب الذي حضر به وفد الهدنة . فقد ظنوا انهم سلموني طلبا بالتسليم ، مع انهم في الواقع سلموني طلبا بالثبات بل امرا بالاستمرار في الدفاع . والان يا مسيو دي لوم اذهب الى الموضع المخصص لك ولا تبرحه حتى أرسل اليك .

واطاع دي لوم . في حين طوى دي لوناي الخطاب ودسه في جيبه ، ثم اتجه نحو رجال المدفعية وقال لهم ان يطلقوا القنابل منخفضة ، وان يحكموا تسديد الهدف لتكون الاصابات قاتلة .

واطاع رجال المدفعية مثلما اطاع المسيو دي لوم . بيد ان مصير الحصن كان قد تقرر . فكل قذيفة مدفع كانت تقابل من الشعب بهتاف صاخب : ـ سنستولي على الباستيل !

وفي الوقت الذي كانت السنتهم فيه تطلق هذا الهتاف ، كانت ايديهم تعمل في همة ونشاط في اطلاق البنادق .

وتفتقت قريحة بيو عن حيلة طريفة ، فقد صرخ فجأة :

ـ هاتوا لي عربة يد !

فتصايحت عشرات الافواه ، ثم جيء له بعربتين ، فصاح :

ـ هاتوا القش .

فسرعان ما امتلأت العربتان بالقش ، ودفعهما امامه محتميا من الرصاص من تحتهما حتى لصقهما بالبوابة الخشبية الكبرى ، ثم اشعل النار فيهما ، فاحترقت البوابة وتدفق الناس الى الداخل مهللين .

فلما راى دي لوناي ذلك ! وكان يدرك مبلغ ما يكنه الناس له من الكراهية ، خطف الشعلة من يد احد رجال المدفعية واسرع نحو اقبية الباستيل ، فتصايح الجنود :

ـ البارود البارود ! سيشعل النار في البارود وينسفنا جميعا .

واسرع جنديان فسدا عليه الطريق باسنة الحراب ، فانثنى واطل على المهاجمين والشعلة في يده :

ـ انني ساشعل اقبية البارود وانسفكم جميعا ، وعليّ وعلى

اعدائي يا رب !

فسرت رعدة خوف شديدة بين الناس وصاحت به عدة افواه :

ــ ماذا تريد ؟ ما شروطك ؟ ــ التسليم المشرف .

وكان اول ما تبادر الى ذهن الناس انها خدعة ، فهو رجل لا يوثق له بوعد فهموا ان يرفضوا هذا الطلب ، ولكن بيو تذكر ان الدكتور جيلبير داخل السجن ، وان نسف الباستيل سيقضي عليه ، فوقف في الناس خطيبا : ــ تمهلوا وفكروا في اخوانكم السجناء .

فعادت الاصوات تسأل دي لوناي :

ــ وما شروط هذا التسليم المشرف ؟

ــ اطلب اولا ان تنسحبوا الى خارج الاسوار ثم تبـــدأ المفاوضة . واتعهد بشرفي ان لا اغير شيئا ولا استغل الوقت للتحصين .

ووثق الناس بهذا الوعد فانسحبوا ، وراح دي لوناي يكتب امامهم على ركبته وثيقة التسليم ، وجنود الحامية يرمقونه بأعين قلقة ، لانهم كانـوا يعلمون ان حياتهم معلقة بمصير ما يكتب .

وفي هذه اللحظة انطلق من بين الجماهير صوت غريب :

ــ هل وثقتم بالطغاة ؟

فكأن لهذه الكلمة وقع أشد من وقع القنابل ، فاندفع الناس داخـل الباستيل كأنهم الطوفان ، وشعارهم كلمة واحدة :

ــ ويل للمغلوب !

***

وفيما كان الناس يقتحمون القلعة صارخين صراخ الغضب والفـرح معا ، كان هناك رجلان يقاومان الاوحال في قاع الخندق ، وهذان الرجلان هما بيو وبيتو وسرعان ما ألقيت اليهما الحبال فخرجا سالمين ، وحملهما الشعب على الاعناق غير ملق بالا الى الطين والوحل . اما هما فقد راحا يصيحان بالناس : ــ الى السجناء اولا ! اطلقوا سراح السجناء.

واندفع الناس الى الزنزانات يحطمونها ويخرجون اهلها . وبدأت في نفس الوقت عملية وحشية اشمأز لها جميع الشرفاء وأولهم بيو . فقـد كانت المحافظة على الارواح هي اساس التسليم البديهي . ولكن هـــذه الجماهير الرعناء منذ وقع بصرها على اول جندي وقد ألقى سلاحه ذبحته ذبح الشاة ، ثم استولت عليهم ضراوة الدم فامعنوا في الذبح حتى أفنوهم

عن اخرهم .
ولمح بيو دي لوناي واقفا امام باب سكنه الخاص بهدوء وشموخ معتمدا بقبضة يده على عصا ذات مقبض ذهبي . فقد كان الرجل ينتظر بإباء مصيره المحتوم . فلما ابصر بيو ، رمقه بنظرة معناها :
ـ اهو انت الذي سيضرب الضربة الاولى ؟
واحب بيو ان يطمئنه ، ولكنه قال في نفسه :
ـ ان انا كلمته فكأنني دللت الناس عليه فيفتكون به .
ثم ان تفكيره كله كان منحصرا في كيفية العثور على الدكتور جيلبير، فوقف مترددا ، فلمح دي لوناي حيرته وقال له هامسا :
ـ ماذا تريد؟ ـ لا شيء . اريد فقط ان اعثر على الدكتور جيلبير.
ـ الطابق الثالث .
وفي هذه اللحظة وصل جونشون فصاح مشيرا الى دي لوناي .
ـ وهذا هو الحاكم .
وكانت هذه الكلمة هي القاضية ، فقد نهش الرجل نهشا وسحق سحقا، وبيو لا يستطيع انقاذه ، فمشى منكس الراس ليتجه الى الطابق الثالث . وهناك وجد السجان على أتم استعداد لتقديم فروض الطاعة والولاء وفتح ابواب الزنازين .
ووجد الدكتور جيلبير وقد طالت لحيته وفي يده عامود من اعمدة السرير ليدافع به عن نفسه ، لانه لم يكن يدري ماذا وراء هذه الضجة .
ووجد الرجل صعوبة شديدة في تصديق نبأ سقوط الباستيل ، ولكنه لم يلبث امام الامر الواقع ان عاونه بيو مبتهجا في تأثر شديد، وهو يقول:
ـ هذا هو اليوم الذي طالما تمنيته وبصرت به .. الشعب اذن قد انتصر على الطغاة . ـ نعم يا سيدي .
ـ وقد اتيت الى هنا كي تحارب في صفوفه ؟
ـ بل جئت من بلدي لأطلق سراحك يا سيدي .
ـ وكيف علمت انه قبض علي ؟
اخبرني نجلك هذا الصباح .
ـ يا لسبستيان المسكين ! وهل رايته ؟ وهل بقي في الدراسة ساكنا وباريس ثائرة ؟
ـ لقد رايته هو واخوانه يحاولون الخروج بالقوة للانضمام الى الثوار.
ـ آه . وماذا قلت له ؟
ـ قلت له ما دام الدكتور جيلبير في الباستيل ، فيجب ان نستولي

على الباستيل ، وها قد استولينا على الباستيل . ولكن ليس هذا كل شيء . فهناك امر مهم اخر . — وما هو ؟

— الصندوق . سرقوا الصندوق يا سيدي .

— الصندوق ؟ ذلك الصندوق الذي استامنتك عليه ؟ ومن الذي سرقه؟

— رجل عجوز في ثياب سوداء ، جاء مع بعض الشرطة بحجة تفتيش مسكني بغية العثور على منشورات وكتب ثورية ، فحبسني في حجرة وراح يقلب البيت بحجة التفتيش ، فعثر على الصندوق فأخذه وانطلق به.

— اذن لا بد ان هناك علاقة وثيقة بين اعتقالي وبين سرقة الصندوق .

— وماذا يمكن ان تكون هذه العلاقة يا سيدي ؟

— ان الشخص الذي تسبب في صدور الامر باعتقالي ، هو بنفسه الذي سعى الى سرقة الصندوق . فاذا عرفت اسم الشخص الذي تسبب في القبض علي عرفت من الذي دبر هذه السرقة. — معقول يا سيدي.

— فاين أرشيف الباستيل ؟

— لا ادري يا سيدي ، ولكن يمكن ان نعرف ذلك بسهولة .

وأسرع بيو نحو احد السجانين الذي كان يرتعد خوفا مما ينتظره بعد ان رأى مصير زملائه الجنود ، فسأله :

— اين أرشيف القلعة يا هذا ؟

— انه يا صاحب السعادة في فناء بيت الحاكم .

فصاح الدكتور جيلبير بصاحبيه :

— اذن هيا ايها الرفيقان الى الارشيف ! فقال السجان :

— اسمح لي يا صاحب السعادة ان آتي معكم ، حتى ادلكم على الطريق واحتمي بكم من حضرات السادة . — وهو كذلك .

— هيا بنا بسرعة يا صاحب السعادة ، لاني اخشى ان يكون المهاجمون قد بدأوا في احراق الاوراق .

— هيا بنا اذن بسرعة ، فالوقت ثمين .

***

فلما وصلوا الى باب مكتب الارشيف لاحظ الدكتور جيلبير ان كومة كبيرة من الاوراق القديمة كانت قد أحرقت فعلا. فسرت في نفسه المرارة لان حماقة الناس تجعلهم على اثر احرازهم اي انتصار يعمدون قبل كل شيء الى الفوضى والتدمير والتخريب . لهذا كان من اول ما صنعه

المهاجمون ان راحوا يمزقون الوثائق او يحرقونها . ولكن لحسن الحظ ان السجلات والدفاتر الكبيرة كانت في رفوف عالية فلم يمسسها سوء . وراح الدكتور جيلبير يفتش بينها عن اخر سجل .

وفيما هو يفعل ذلك ابصر بيتو بغلام صغير من شياطين الانس يحمل فوق راسه احد هذه السجلات الكبيرة ويجري مسرعا كي يلقي به في النار فجرى خلفه مستغلا موهبة طول ساقيه ، وانتزع من فوق راسه السجل ، فاذا به اخر سجل ، سجل سنة ١٧٨٩ .

ولولا ان بيتو كان قد اظهر نشاطا في قيادة الهجوم بحيث عرفه الجميع معرفة جيدة لحدثت مشاجرة ، ولكن الغلام هز كتفيه قائلا :

ــ لا باس فالغنائم كثيرة . وفي وسعي ان احرق سواه .

ولم يطل البحث في ذلك السجل . اذ سرعان ما وجد جيلبير اسمه مكتوبا امامه :

ــ في هذا اليوم التاسع من يوليه سنة ١٧٨٩ احضر الينا السيد جيلبير وهو فيلسوف وكاتب سياسي ، وشخص خطر جدا ، على ذمة التحفظ عليه بغاية السرية والحذر .

وراح جيلبير بعد ذلك يفتش عن اسم من امر بالقبض عليه ، فاذا به يكتشف ان ذلك الشخص هو الوزير نكار دون سواه فصاح :

ــ عجبا ! لا بد ان في الامر غلطة او مؤامرة .

فساله الواقفون حوله ، وكلهم يعبدون نكار :

ــ هل نكار صديقك ؟

ــ نعم ايها الاصدقاء ، وانا اجزم ان المسيو نكار لم يكن يدري انني في السجن . وساذهب فورا الى مقابلته حتى استوضحه المسالة .

فقال له بيو : ــ تذهب لمقابلة نكار ؟ واين ؟

ــ في فرساي طبعا .

ــ ان المسيو نكار ليس في فرساي . انه منفي في بروكسل .

ــ وابنته ؟ ــ انها في بيتها الريفي في سان أوان .

ــ عظيم . ساذهب لمقابلتها اذن .

والتفت نحو الجماهير التي عادت الى الاحراق وتمزيق الوثائق فقال :

ــ اناشدكم باسم التاريخ الا تعدموا هذه الوثائق ، لانها بمثابة احكام تدين الطغاة . حطموا الباستيل حجرا حجرا ، ولكن ابقوا على السجلات واحترموها لانها نور للمستقبل .

واخلد الجمهور للسكينة مذعنا لهذه الرغبة، ثم قال الدكتور لصاحبيه:

ــ والان ايها الصديقان هيا بنا .

واتجهوا نحو باب الخروج ، فاذا في طريقهم جمع حول جثة الحاكم المقتول دي لوناي وهم يتصايحون بما يفهم منه العجب والاهتمام . فاقترب الدكتور وصاحباه منهم ، واستوضحوهم الامر . فاتضح انهم بعد ان مثلوا بجثة دي لوناي الذي مات بشجاعة فائقة محتملا اسوأ انواع العذاب دون ان يختلج له جفن ، راحوا يفتشون جيوبه ، فوجدوا فيها الخطاب الذي ارسله اليه دي فليسيل عمدة باريس يحضه فيه على الثبات والدفاع وعدم التسليم ويمنيه بقرب وصول المدد قبل الغروب .

مدام دي ستايل

وبعد سويعات كان الدكتور جيلبير قد ركب عربة راح يذرع بها شوارع باريس .. واحب في الطريق ان ينفس عن صدره ما يدور فيه من الهواجس والاحتمالات ، فقال يحدث بيو :

ــ لقد ذكرت لي يا عزيزي المسيو بيو ان الملك اقال المسيو دينكار..

ــ هذا ما حدث فعلا يا سيدي .

ــ وأن المظاهرات قامت في باريس على اثر تلك الاقالة ..

ــ اجل يا سيدي .

ــ وأضفت الى هذا ان المسيو دي نكار غادر فرساي فورا ..

ــ لقد تلقى خطاب الملك وهو يتغدى . وبعد ساعة واحدة كان في طريقه الى بروكسل حيث يقيم الان ، او هكذا ينبغي .

ــ الم يترام الى سمعك انه توقف في بعض الطريق ؟

ــ أجل . بلغني انه توقف عند ضيعة «سان اوان» حيث تقيم ابنته البارونة دي ستايل ..

ــ وهل ذهبت مدام دي ستايل مع والدها ؟

ــ بل بلغني انه رحل مع زوجته فقط .

ــ حسنا . ايها الحوذي . توقف بنا عند اقرب خياط يبيع الملابس .. فقال بيو متسائلا :

ــ وهل تريد تبديل ثيابك ؟

ــ نعم . فهذه الحلة تفوح منها رائحة الجدران الرطبة.. فهي لا تصلح لزيارة سيدة محترمة ابنة رئيس وزراء سابق .. والان فتش في جيبك

من بضعة جنيهات تقرضني اياها .
ـ اظنك نسيت كيس نقودك في الباستيل ..
ـ ان كل ما هو ذو قيمة يؤخذ منك عند دخول الباستيل يا صاحبي.
ـ اذن هاك هذه الجنيهات العشرين ..
ووقفت العربة امام طرزي يبيع كافة انواع الملابس الجاهزة . فلبس الدكتور جيلبير سترة جديدة متقنة الصنع سوداء اللون ، كتلك التـــي يرتديها نواب الطبقة العامة في الجمعية الوطنية . ثم بعد ذلك تولى حلاق ماهر ترجيل شعره ولحيته ، وأتم تلك الاناقة ماسح احذية ، حتى صار الدكتور جيلبير على تمام الاهبة لمقابلة اي شخصية محترمة دون تحرج .
وبعد ان تم هذا كله امر الدكتور جيلبير الحوذي بأن يقوده الى سان اوان من ضواحي باريس . وهناك ترجل الدكتور جيلبير عند البوابـــة الكبرى من منزل نكار الصيفي، وكانت الساعة في ذلك الوقت السابعة مساء.
وكان السكون المطبق يخيم حول ذلك البيت الذي طالما كثرت حوله الحركة واشتد الرواح والغدو وصاحبه في مراكز السلطان . فالبوابـــة مقفلة ، وممرات الحديقة مقفرة ، مما يدل على ان رب البيت غائب عنه. ولكن لم يكن هناك فيما عدا ذلك اي دليل على الاضطراب او التعاســـة التي تقترن غالبا بزوال السلطان .
ولاحظ الدكتور جيلبير ان جناحا كاملا من اجنحة القصر ، هو الجناح الشرقي ، لا تزال نوافذه مفتوحة . فتقدم الدكتور جيلبير نحو ذلـــك الجانب ، فلقيه خادم يرتدي ملابس خدمة المسيو دي نكار . فدار بينهما الحوار التالي :
ـ اليس المسيو دي نكار موجودا في البيت ايها الصديق ؟
ـ كلا فقد غادر البارون سان اوان يوم السبت الماضي قاصـــدا بروكسل . ـ وصاحبة العصمة البارونة ؟
ـ صحبت صاحب السعادة . ـ ومدام دي ستايل ؟
ـ لقد بقيت مدام دي ستايل هنا ، ولكني لا ادري اذا كانت المدام على استعداد لاستقبال اي انسان في هذه اللحظة ، فهي ساعة نزهتها اليومية قبل العشاء .
ـ ارجوك ان تدلني على موضع نزهتها وان تعلن اليها حضور الدكتور جيلبير .
ـ ساذهب اولا واسال اذا كانت المدام لا تزال في البيت او خرجت للنزهة . فاذا كانت في البيت لا شك انها ستستقبل سيدي ، اما اذا كانت

في النزهة فان اوامرها القاطعة الا نقطعها عليها لاي سبب من الاسباب .

ـ حسنا . اذهب بسرعة من فضلك .

ففتح الخادم البوابة ودخل الدكتور جيلبير الحديقة . وفيما كان الخادم يفعل ذلك القى نظرة استرابة على العربة التي حضر فيها الدكتور وعلى السحنتين الغريبتين اللتين في العربة ، وهما سحنتا بيو وبيتو . ثم ذهب وهو يهز رأسه ليقضي مهمته وبقي الدكتور جيلبير وحده ينتظر أوبته . وبعد نحو خمس دقائق عاد الخادم وقال :

ـ ان البارونة دي ستايل في نزهتها .

ثم انحنى امام جيلبير كأنما يصرفه الى حال سبيله . ولكن الدكتور لم يكن التخلص منه بسهولة كما كان يعتقد ذلك الخادم ، فقد انثنى يقول له بهدوء واصرار :

ـ ايها الصديق ارجو ان تسمح في هذه المرة بفتح ثغرة بسيطة في الاوامر الصادرة اليك ، فتتطفل على البارونة بالاستئذان لي عليها وان تقرن اسمي عند اعلانه بانني صديق الماركيز دي لافاييت .

وكانت اللهجة مقنعة ، وزاد في اقناعها حتما ذلك الجنيه الذهبي الذي دسه في راحة يد الخادم ، فصادف لديه ارتياحا لقضاء هذه المهمة الثقيلة . ويظهر ان إسم الماركيز دي لافاييت كان له بعض الشأن في الموضوع ، لان الخادم ما ان سمعه حتى قال :

ـ تفضل بمتابعتي يا سيدي .

وتبعه الدكتور جيلبير ، لا الى البيت ، ولكن الى الحديقة .

ـ هذا هو الجانب الاثير لدى سيدتي البارونة . فارجو ان تنتظرني هنا لحظة حتى ادخل هذه الاجمة فاستأذن لسيادتكم .

وانقضت عشر دقائق سمع على اثرها الدكتور حفيف اوراق الاشجار، ثم ظهرت امرأة شابة تتراوح سنها بين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين من العمر ، تغلب عليها امارات النبالة اكثر مما تبدو عليها سمات الجمال .

وظهر على البارونة حين وقعت عيناها على الدكتور جيلبير شيء كثير من الدهشة ، لانها وجدته يبدو اصغر سنا مما توقعت بكثير .

ـ أهو انت يا سيدي الدكتور جيلبير ؟

ـ نعم يا سيدتي .

ـ انك تبدو صغير السن برغم ما حصلت عليه من شهرة واسعة وصيت ذائع . هذا اذا لم تكن تلك الشهرة لوالدك او لبعض آلك ممن

هم اسن منك .

ـ لست اعرف احدا بهذا الاسم سواي يا سيدتي . فاذا كانت هناك حقيقة بعض الشهرة فلي الحق فيما اعتقد في ادعائها لنفسي .

ـ لقد استخدمت اسم الماركيز لافاييت لتحصل على هذه المقابلة مني، وقد حدثنا الماركيز عنك كثيرا ، وعن معلوماتك الواسعة واطلاعك .

فانحنى جيلبير شاكرا ، واستطردت البارونة قائلة :

ـ وقد اطنب المركيز كثيرا في الادوية التي طالما وصفتها لامـــراض الاجساد ، وامراض المجتمع ، واسهب في كفاحك الطبي في مستشفيات امريكا ، فذدت الموت عن عشرات كان ميئوسا من شفائهم .. حتى خلناك بطلا من ابطال الاساطير .. ولاسيما تلك العلاجات الغريبة التي استخدمت فيها «الموت الصناعي او الوهمي» .

ـ ان ما تسمينه الموت الصناعي او الوهمي ان هو الا ثمرة علم جديد لا يزال ناشئا . ولكنه سوف ينتشر ويذيع في اركان الارض بعد قليل .

ـ اتعني بذلك «المسمرية» ؟ ـ اجل ، او التنويم المغناطيسي.

ـ وهل اخذته عن الاستاذ «مسمر» نفسه !

ـ بل عن استاذي الفلكي الخارق ، كاليوسترو !

ـ آه ، ولماذا غبت كل هذه المدة عن فرنسا يا سيدي ؟ لماذا لم تعـد لتحتل مكانك اللائق بك بين كبار رجال العصر ، امثال لافوازييه وكابانيه وكوندورسيه وبايي ولويس ؟

ـ ذلك يا سيدتي انني لا زلت في حاجة الى كثير من الدراسة قبل ان اضع نفسي في مصاف هؤلاء الصفوة من كبار الاساتذة .

ـ ولكن ها انت ذا قد حضرت الى فرنسا اخيرا ، ولكن في لحظة غير مواتية بالنسبة لنا . فوالدي الذي كان يسعده ولا شك ان يقدم لك اجل الخدمات ليس موضع الرضى في الوقت الحاضر ، وقد غادرنا منـــذ ثلاثة ايام ..

فابتسم جيلبير وانحنى انحناءة يسيرة ثم قال :

ـ سيدتي البارونة . منذ ستة ايام فقط سجنت في الباستيل بامر البارون ! فاحمر وجه البارونة خجلا وقالت :

ـ أحقا يا سيدي ؟ انك تدهشني بهذا القول .. انت في الباستيل ؟

ـ بلحمي ودمي يا سيدتي البارونة .

ـ وماذا فعلت حتى سجنت ؟

ـ علم هذا عند من سجنوني ..

ـ ولكنك لست الان في السجن ..
ـ كلا يا سيدتي . لان الباستيل لم يبق له وجود !
فصاحت مدام دي ستايل مصطنعة الدهشة :
ـ ما هذا الذي تقول ؟ الباستيل لم يعد له وجود ؟ وكيف ذلك ؟
ـ ألم تسمعي يا سيدتي البارونة قصف المدافع ظهر اليوم ؟
ـ سمعت . ولكن المدافع ليس معناها بالضرورة سقوط الباستيل .
ـ اسمحي لي يا سيدتي البارونة ان اقول لك انه يستحيل على عقلي ان يتصور ان مدام دي ستايل ابنة البارون دي نكار لم تسمع حتى هذه اللحظة ان الشعب قد استولى ظهر اليوم على حصن الباستيل ..
ـ أؤكد لك يا سيدي الدكتور انني منذ سافر والدي ، لم اعد أشغل وقتي ولا ذهني الا بالاسف على غيابه !
ـ سيدتي . سيدتي . ان سعاة الدولة ورسلها يعرفون تمام المعرفة طريق قصر سان اوان ، فلا ريب ان بعضهم قد حضر الى هنا يحمل اخبار سقوط الباستيل في هذه الساعات الاربع التي انقضت على سقوطه ..
فايقنت مدام دي ستايل انه يستحيل عليها خداع رجل مثل الدكتور جيلبير ، ولذلك غيرت مجرى الحديث قائلة :
ـ والى اي سبب اعزو هذه الزيارة التي اسعدتني بها ؟
ـ لقد خامرتني رغبة قوية في التحدث الى البارون دي نكار يا سيدتي.
ـ الا تعلم انه غادر فرنسا ؟
ـ سيدتي . لقد بدا لي غريبا جدا ان يرحل البارون عن فرنسا في هذا الاوان . ـ وعلى ذلك ؟
ـ وعلى ذلك فاني أعتمد على عصمتك في ارشادي الى موض -ه الصحيح!
ـ ستجده في بروكسل يا سيدي !
فرمقها جيلبير بنظرة فاحصة ثم قال وهو ينحني :
ـ شكرا لك يا سيدتي . سأرحل فورا الى بروكسل ، لان لدي امورا على اعظم جانب من الاهمية لا بد ان اطلعه عليها فورا .
فظهر التردد على وجه البارونة دي ستايل ثم قالت :
ـ لحسن حظك يا سيدي اني اعرفك وأعرف مبلغ ما في شخصيتك من الجد . واني اقدر مبلغ خطورة الامور السرية ، وانها تفقد وزنها اذا خرجت من بين شفتي صاحبها الى اذن غير الاذن المقصودة بها .. ولكن ترى اي امور خطيرة يمكن ان تتصل بوالدي بعد اقصائه ، وبعد الـذي حدث اخيرا ؟

ـ هناك المستقبل يا سيدتي . وربما ! لم اكن بعيدا عن التأثير في ذلك المستقبل المشحون بالاحتمالات يا سيدتي .. ولكن هذا كله ليس ذا بال ، فالمهم الان ان ارى المسيو دي تكار بأسرع وقت لنتباحث فيما لدي من امور جسام .. وما دام البارون يا سيدتي في بروكسل كما قلت .. اليس كذلك ؟

ـ بلى يا سيدي ..

ـ اذن لن تستغرق الرحلة سوى عشرين ساعة متواصلة اكون بعدها في مدينة بروكسل . ولكن هذا الوقت للاسف طويل جدا ..

ـ اعشرون ساعة وقت طويل جدا يا سيدي ؟

ـ في أوقات الثورات . نعم يا سيدتي . فكم من الاحداث الجسام يمكن ان تحدث في هذه العشرين ساعة التي أقضيهـــــا في الركوب ! ولعمري قد اخطأ البارون دي تكار اذ رحل عن فرنســـا في هذا الوقت بالذات ، وهو الثاقب النظر في عواقب الامور ومقدماتها .

ـ الحق يا سيدي انك اقلقت خاطري ، بحيث بدات أشعر ان والدي لم يكن مصيبا في الرحيل عن فرنسا .

ـ ولكن ماذا بيدك يا سيدتي ؟ العبرة بالواقع . فليس امامي الان سوى ان اعتذر لصمتك عن ازعاجك ، واستودعك الله ..

بيد ان البارونة دي ستايل استوقفته قائلة :

ـ اقول لك يا سيدي انك اقلقت خاطري ، فلا اقل من تهدئة خاطري ببعض الايضاح فيما يمس مهمتك مع والدي .

ـ واأسفاه يا سيدتي ! ان شرفي وحياتي في كفة الميزان ، وليس لدي من الوقت ما اضيعه هباء .

ـ لا عليك . ولكن اسمح لي ان اتذكر الان امرا نسيته منذ حضورك..

ـ الا وهو ؟

ـ ان الامور الخطيرة التي تتحدث فيها لا يصح ان تناقش في الهواء الطلق حيث يمكن ان تصل اليها اي اذن متلصصة .

ـ اسمحي لي يا سيدتي ان اذكرك انني في بيتك ، وانك انت التي اخترت موضع المقابلة والحديث . وانا طوع اشارتك على كل حال .

ـ اذن ارجو ان تأتي معي الى قاعة مكتبي ..

وانطلقا ...

حديث سرّي

١

وامام مدخل القصر وجدا ذلك الخادم الذي كان قد استقبل الدكتور جيلبير ، فأشارت البارونة دي ستايل الى الخادم اشارة خفية ، ثم فتحت الباب بنفسها وادخلت جيلبير الى المكتب ، وهو قاعة انيقة جدا ، غير انها اقرب الى الذوق الرجالي منها الى الرقة النسائية . وبابها ونافذتها يفضيان الى فناء داخلي لا يراه من خارج القصر . فهو مخبأ امين لمن يريد الاعتكاف .

فلما دخلا الى هناك ، اغلقت البارونة الباب عليهما وقالت :

– سيدي : باسم الانسانية ان تبوح لي بالسر الذي حدا بك الى الحضور اليوم الى سان اوان .

– سيدتي : لو ان والدك يستطيع الان ان يسمع كلماتي ، ولو انه يعلم انني الرجل الذي ارسل الى الملك تلك المذكرات السرية التي عنوانها «تقرير عن الحالة الفكرية والتقدم» فلا شك عندي في ان البارون دي نكار سيظهر في الحال ليقول لي : «يا دكتور جيلبير ماذا تريد مني . تكلم فاني مصغ اليك » .

وما كاد جيلبير يتم هذه الكلمات حتى انفرج الحائط عن باب سري كانت تخفيه عن العيون لوحة كبيرة ، ثم ظهر البارون دي نكار مبتسم الاسارير . وعندئذ انحنت البارونة دي ستايل للدكتور جيلبير انحناءة يسيرة ، ثم قبلت جبين والدها وتركت الغرفة عن طريق الباب السري الذي دخل منه ابوها ثم اغلقت ذلك الباب وراءها .

وتقدم البارون دي نكار نحو جيلبير ومد اليه يده قائلا :

– ها هو انا يا دكتور جيلبير . ماذا تريد مني ؟ تكلم فاني مصغ اليك كل الاصغاء .

وجلس الرجلان ، وشرع جيلبير يتكلم . قال :

– يا سيدي البارون . لقد سمعت الان سرا كشف لك النقاب عن جميع افكاري . فقد كنت انا الذي ارسل منذ اربع سنوات مذكرة الى الملك عن الحالة العامة في اوربا ، وكنت انا الذي ثابر منذ ذلك الحين على ارسال المذكرات اليه من الولايات المتحدة عن جميع المسائل العامة التي تشغل الاذهان في فرنسا .

فأجاب نكار معلقا على ذلك بعد ان انحنى :

– وهي جميعا اعمال لم يتحدث الى جلالة الملك بخصوصها الا حديثا

مقرونا بالاعجاب العميق ، وان كان ذلك الاعجاب مصحوبا بالرعب والفزع من مضمون هذه المذكرات الجريئة .

ـ ذلك لانها حقائق ، ولكن اذا كانت الحقائق شديدة الوقع على السمع ، فهل تراها ، بعد ان صارت واقعا ملموسا اصبحت أخف وقعا على العين ؟

ـ ان لك لفراسة صادقة يا سيدي ؟

ـ وهل أرسل الملك اليك هذه الابحاث للتصرف ؟

ـ ليست كلها . وانما أرسل اثنين منها فقط ، احدهما في المسائل الاقتصادية وكنت في ذلك البحث ترى رأيي في جميع المسائل ما عـــدا بعض نقط تفصيلية .

ـ ولكن كان هناك بحث اخر يا سيدي البارون تنبات فيه بجميـــع الحوادث التي وقعت وتقع الان .

ـ واي بحث هذا الذي تعنيه يا سيدي ؟ واي حوادث ؟

ـ لقد تنبات بامرين على الخصوص : اولهما ان الملك سيجد نفســه مضطرا يوما ما الى اقصائك بناء على وعود تورط فيها .

ـ هل تنبات له اذن بإقالتي ؟

ـ بلا شك ..

ـ هذا هو الاول فما هو الامر الثاني ؟

ـ الامر الثاني يا سيدي البارون هو سقوط الباستيل ؟

ـ نعم يا سيدي البارون فقد كان الباستيل اكثر من سجن ملكي . كان رمز الطغيان فلا عجب ان تبدأ الحرية نشاطها بالقضاء على ذلك الرمز . وستتم الثورة ما يتبقى بعد ذلك .

ـ وهل كنت مقدرا خطورة الكلمات التي تقولها الان ؟

ـ اني مقدر خطورتها كل التقدير ..

ـ وهل لست خائفا من التصريح بها جهارا ؟

ـ يا مسيو دي نكار . اذا قدر لانسان ان يخرج من الباستيل بعد ان حل به ستة ايام ، فان ذلك الرجل لا خوف عليه بعد ذلك من شيء على الاطلاق ؟

ـ هل كنت اذن في الباستيل ؟

ـ هذا سؤال كنت اريد ان اسالك اياه .

ـ تسالني انا ؟

ـ نعم انت ولا شك .

ـ ولماذا انا بالذات ؟

ـ لانك انت يا سيدي البارون دي نكار الذي امرت بالقائي في سجن الباستيل منذ ستة ايام .

ـ انا امرت بالقائك في الباستيل ؟

ـ نعم ومنذ ستة ايام . فالوقت كما ترى يا سيـــدي البارون ليس بعيدا جدا بحيث تكون قد نسيت .

ـ هذا مستحيل .   ـ هل يمكن ان تعرف امضاءك ؟

ثم ابرز الدكتور جيلبير من جيبه الصحيفة التي قطعها من سجـــل الباستيل ومعها الخطاب المختوم الذي كان مرفقا بها وعليه توقيع نكار، فتصفحهما البارون ثم قال :

ـ هذا امضائي ولا شك على الخطاب المختوم . وانت تعلم انني لـم اكن اوقع من الخطابات المختومة الا اقل عدد ممكن . ولكن كان هـــذا الحد الادنى يصل مع ذلك الى اربعة آلاف خطاب في السنة . يضاف الى هذا انه قبيل اقالتي جعلوني اوقع عددا من هذه الخطابات على بياض ، فلا بد يا سيدي ان امر القاءك في السجن كان من هذه الفئة الاخيرة .

ـ هل تعني بذلك انني لا استطيع ان اعزو سبب سجني اليك ؟

ـ نعم .. ولا شك .

ـ ولكن مع هذا يا سيدي ألبارون أرجو ان تقدر البواعث التي تجعلني شديد الفضول في هذا الموضوع . فلا بد لي على كل حال من معرفة من هو الذي ادين له باعتقالي في الباستيل . فأرجو منك ان تتكرم بإخباري.

ـ ليس هناك ما هو أسهل من هذا . فلم يكن من عادتي ان اتـــرك اوراقي في مكتب الوزارة ، ففي كل ليلة أحضرها معي الى هنا . وأوراق هذا الشهر موجودة في الدرج ب من هذا الدولاب : فهيا ننظر الى حرف ج من بينها .

وفتح نكار الدرج واخرج منه عددا ضخما من الاوراق يصل الى حوالي الستمائة ، وقال :

ـ انا لا احتفظ هنا الا بالاوراق التي قد تكون لها فائدة في تغطيـــة مسئوليتي . فكل امر بالقبض لا شك انه سيضيف عدوا جديدا الى مجموع اعدائي ، وهو مجموع غير قليل . ولذلك احتفظ دائما باسم من طلب مني اي خطاب مختوم لاعتقال انسان . والان لننظر ج.ج.ج. آه هذا هـــو الخطاب نعم يا جيلبير ان امر القبض عليك قد تم بناء على طلب احد اعضاء حاشية الملكة .

ـ هل تتكرم باعطائي هذا الطلب ؟

ـ كلا . ولكن بوسعي ان اقول لك من الموقع عليه .

ـ اذن تفضل بالكشف لي عن شخصيته مشكورا .

ـ انها الكونتس دي شارني .

ـ الكونتس دي شارني ؟ انا لا اعرفها ، ولم افعل شيئا يمكن ان يكون قد جلب سخطها علي .

ـ هناك حاشية صغيرة تحت الخطاب ليس تحتها توقيع ، ولكنني اعرف ذلك الخط جيدا .

فتقدم جيلبير وقرا تلك الحاشية على هامش الخطاب .

ـ افعلوا ما تطلبه الكونتس دي شارني فورا .

ثم ظهرت الحيرة على وجه الدكتور وقال :

ـ هذا والله امر غريب . فمن اليسير ان اتصور لماذا تمضي الملكة ذلك الخطاب مثلا ، لانني اشرت اليها والى آل بولينياك اشارات صريحة قاسية في مذكراتي السرية الى الملك . اما الكونتس دي شارني ، فلم اعرفها ولم اشر اليها قط .

ـ الا تعرفها على الاطلاق ؟

ـ ربما كان الاسم مموها . ثم لا غرابة ان اجهل هؤلاء النبلاء من اهل فرساي ، بعد ان سلخت تلك المدة الطويلة غائبا عن فرنسا . فمن هي يا ترى هذه الكونتس دي شارني ؟

ـ انها الصديقة الحميمة الملازمة للملكة . والزوجة الحبيبة للكونت دي شارني وهي امراة تجمع بين الجمال المفرط والعفة .

ـ صدقني لست اعرف هذه الاعجوبة .

ـ اذا كان الامر كذلك يا دكتور ، فثق انك ضحية مؤامرة سياسية .

ـ ليكن . ولنتكلم الان في موضوع اخر تعرفه انت ويعرفه عنك كل انسان ، وهو انه لن تنقضي ثلاثة ايام اخرى حتى يعيدك الملك الى منصبك الوزاري ، وعندئذ سيتاح لك ان تحكم فرنسا كما تشاء .

فابتسم البارون دي نكار وقال : ـ اتظن هذا ؟

ـ بل وتعتقده انت ، ما دمت لست في بروكسل !

ـ ولكن ماذا ستكون النتيجة ؟ فالنتيجة هي التي تهمني .

ـ هاك هي . انك محبوب من جميع الفرنسيين . وسيزداد حبهم لك حتى يصل الى حد العبادة . وقد سئمت الملكة في الماضي وكرهت ان تراك محبوبا . وسيكره الملك في المستقبل ان يراك معبودا ، وسيحاولان الوصول الى قلب الشعب على حسابك . فستفقد عندئذ مكانتك الشعبية ، لان الشعب يا سيدي البارون العزيز كالاسد المفترس ، لا يلعق الا اليد التي تقدم اليه الطعام ، ايا كانت هذه اليد . واما اليد التي لا تطعمه فانه ينهشها . . .

ـ وبعد ذلك ؟ ـ وبعد ذلك سيطويك النسيان .
ـ وما الذي يجعلني نسيا منسيا ؟
ـ حوادث الاوان وحكم الوقت وظروفه .
ـ انك وايم الله تتحدث حديث النبوة .
ـ من سوء طالعي انني نبي الى حد ما .
ـ اذن ماذا سيحدث بعد ذلك ؟
ـ ليس من الصعب التكهن بما سيحدث بعد ذلك ، فهو موجود الان جنينا في الجمعية الوطنية فسيظهر حزب يتستر الان ولا يظهر نفسه ، سيكون زعيمه مبدأ وسلاحه فكرة .
ـ فهمت . انك تعني حزب اورليان .
ـ كلا . فلو كان ذلك لقلت عنه ان زعيمه رجل وسلاحه الشهرة والمحبة الشعبية ، انما حديثي اليك الان عن حزب لم يعرف له اسم بعد. انه الحزب الجمهوري . ـ الحزب الجمهوري ؟ هذا مضحك !
ـ وهل لا تؤمن بوجوده ؟ ـ انه حديث خرافة ولا ريب !.
ـ كلا ، بل سوف يندلع من الحزب لهب سيبتلعكم جميعا .
ـ ولماذا ؟.. في وسعي ان اغدو جمهوريا . بل انني جمهوري من الان بالفعل .
ـ وهل تعرف يا بارون شيئا عن الجماعات السرية ؟
ـ لقد سمعت كلاما من هنا وهناك عن بعضها .
ـ وهل تؤمن بوجودها ؟
ـ أومن بوجودها . ولكني لا اعتقد انها واسعة الانتشار او قوية النفوذ كما يزعمون .
ـ ولكن هل انت عضو في بعضها .. ولو حتى في محفل ماسوني..
ـ كلا ..
ـ أما انا يا مسيو دي تكار ، فعضو فيها جميعا على اختلاف انواعها. وثق ان هذه الجمعيات لها نفوذ قوي جدا ، وواسعة الانتشار الى اقصى حد ، أوسع كثيرا مما يخيل اليك .. فنحن في الواقع ثلاثة ملايين ، من كافة الطبقات والطوائف والحرف والوظائف . فكن على حذر يا بارون ، فربما كان الامير الذي تعاديه اخا في جماعاتنا . وربما كان الخادم الذي تزدريه اخا لنا . وثق ان شرفك ليس ملك يمينك ، وأن ثروتك ليست لك ، وان حياتك نفسها ليست لك .. وسيقيم هؤلاء الاخوة الجمهورية الفرنسية كما اقام امثالهم الجمهورية الامريكية ثم سيحاولون بعد ذلك

انشاء الجمهورية الاوربية الكبرى .

ـ يخيل الي انك تنظر الى الامور كافة بمنظار دموي يا دكتور .

ـ لا شك انك كنت تراها بالمنظار عينه لو انك كنت معنا في ساحة الباستيل صدر هذا النهار المشهود .

ـ معك حق . فقد بلغني انه حدثت هناك مذبحة هائلة جدا .

ـ انها العاصفة البشرية ، التي اذا هبت كانت اشد من كل العواصف الجوية ...

فاستسلم البارون دي نكار للتفكير بعض الوقت ثم قال :

ـ لماذا لا تلزم جانبي يا دكتور جيلبير ؟ انك ولا شك ناصح امين ومشير ثاقب النظر مخلص ، ستفيدني ، وتفيد فرنسا كلها بآرائك الناضجة .

ـ ولكني ساكون انفع ولا شك حيث انوي ان اذهب ..

ـ واين ذلك !.

ـ اسمع يا سيدي البارون العزيز . الى جوار عرش الملك نفسه يوجد عدو لدود للعرش وللملك ، وذلك العدو هو «الملكة» نفسها .

ـ الملكة ؟

ـ نعم الملكة ! فان هذه المراة المسكينة تنسى انها ابنة ماريا تيريزا النمسوية . او هي لا تذكر ذلك الا من وجهة الخيلاء الكاذبة . وهي تظن انها تنقذ الملك وعرشه في حين انها تحطم ما هو اكثر واهم من الملك، الا وهو الملكية كلها . فمن الضروري ان نتضافر نحن الذين نحب الملك ونحب فرنسا ، كي نلغي تأثير الملكة السيء ونكف اذاها .

ـ الطريق واضح : ابق معي يا سيدي وساعدني .

ـ انني اذا بقيت الى جوارك سنعمل في ميدان واحد وندور في فلك واحد ، فكأنني ساكون انت ، وستكون انت انا . لهذا يجب ان نفصل قوتينا حتى يكون لهما وزن مضاعف وتأثير مزدوج .

ـ والى اي هدف سنرمي بأعمالنا المزدوجة ؟

ـ لعلنا مستطيعان ان نؤخر وقوع الكارثة ، ولكن ليس معنى هذا اننا سنتمكن من منعها نهائيا . وان كنت اضمن معاونة قوة هي ولا شك قوة الماركيز دي لافاييت .

ـ ولكن اليس الماركيز دي لافاييت جمهوريا يا دكتور ؟

ـ انه جمهوري طبعا في حدود استطاعته . فانه اذا كان علينا ان نقيم المساواة بين الناس ، فاني افضل ان يكون مستوى المساواة لجميع الناس هو مستوى النبالة لا مستوى الوضاعة والسوقية . فاني ارى الى

تحقيق المساواة التي ترفع لا تلك التي تسف وتهبط بالبشر . الست من رايي يا بارون ؟ — وهل تضمن لافايت حقا ؟

— بالتأكيد ، ما دمنا لا نطالبه بشيء عدا الشرف والشجاعة والولاء .

— تكلم اذن ولا تخف عني شيئا ، ماذا تريد مني ؟

— أريد خطاب تقديم الى جلالة الملك لويس السادس عشر .

— ان رجلا في مثل فضلك ليس بحاجة الى خطاب تقديم .

— ولكن يطيب لي ان اكون صنيعتك . فان جزءا من خطتي ان تكون انت الذي قدمتني للملك .

— وما مرادك من ذلك التقديم ؟

— أن اغدو من اطباء الملك الخصوصيين في الاحوال العادية .

— ليس هناك ما هو اسهل من هذا . ولكن ماذا ستفعل وهناك نفوذ الملكة التي تكرهك جدا ؟

— عندما اقابل الملك ساستطيع معالجة هذه النقطة .

— ولكنها سوف تتعقبك .

— في هذه الحالة ساجعل الملك يثبت وجوده .

— الملك يثبت وجوده ؟ انك اذا استطعت هذا كنت انسانا فوق البشر .

— وهل تعجب يا سيدي البارون ان يتمكن طبيب يدين له الجسد من ان يسيطر على العقل والروح ؟

— ولكن الا تظن ان اعتقالك وسجنك في الباستيل سيكون عقبة في سبيل التوصية بأن تغدو طبيب الملك الخاص ؟

— بالعكس . هي خير توصية ، الم تكن جريمتي التي سجنت من اجلها هي اشتغالي بالفلسفة ؟ — اظن ذلك .

— اذن سيتمكن الملك من استرداد نفوذه الشعبي اذا اختار لوظيفة الطبيب الخاص رجلا من تلاميذ جان جاك روسو وكاتبا فيلسوفا من المدرسة الحديثة ، وسجينا سياسيا سابقا في الباستيل . واوصيك عند اول مقابلة مع جلالته ان توضح له اهمية هذه النقطة .

— ان حججك مقنعة جدا . ولكن هل في وسعي بعد ان تصل الى المنصب وتغدو طبيب الملك الخاص ان أعتمد عليك في مساعدتي سياسيا؟

— كل الاعتماد ما دمت تسير على الخطة السياسية التي نتفق عليها معا .

— وبماذا تعدني وعد الشرف ؟

— أعدك وعد الشرف ان انذرك في اللحظة المناسبة كي تعتزل الوزارة ، فلا تبقى حتى تكون كبش الفداء .

فحدق البارون دي نكار في الدكتور جيلبير لحظة طويلة ثم قال في لهجة تنم عن التفكير العميق :

ـ الواقع يا دكتور ان هذه اهم خدمة يمكن ان يطمع فيها الرجل السياسي الحصيف بمعنى الكلمة .

ثم جلس البارون الى المكتب وراح يكتب الى الملك خطاب التقديم فجاء على الوجه الاتي :

« مولاي

« اعلم ان جلالتكم بحاجة الى خدمات رجل اهل للثقة تستطيعون التحدث اليه بصراحة في الامور الهامة . وان امنيتي لمولاي وانا افارقه هو اهدائي اياه الدكتور جيلبير .

« وانه ليكفي ان اقول لجلالتكم ان الدكتور جيلبير ليس من اشهر اطباء عصره فحسب ، ولكنه ايضا مؤلف الابحاث والمذكرات الهامة في الادارة والسياسة ، التي تركت اثرا عميقا في ذهن جلالتكم .

رهين اعتابكم

« بارون دي نكار »

ولم يؤرخ البارون الخطاب بل تركه للدكتور جيلبير كي يضع عليه التاريخ الذي يوافقه ، ثم نهض قائلا :

ـ اظن انه يمكنني الان ان اعود الى بروكسل كما كنت .

وهكذا انتهت الزيارة وعاد الدكتور جيلبير الى العربة حيث كان ينتظره بيو وبيتو وقد غلبهما النعاس بعد متاعب ذلك اليوم الهائل .

لويس السادس عشر

دامت المقابلة بين الدكتور جيلبير وكل من مدام دي ستايل والبارون دي نكار نحو ساعة ونصف ، ولهذا وصل جيلبير الى باريس بعيد التاسعة مساء بربع ساعة ، فاتجه فورا الى مكتب البريد وأمر باعداد جياد قوية وعربة خفيفة ، ثم ودع بيو وبيتو اللذين اتجها ليحظيا بالراحة والنوم في خان صغير بشارع تيرو اعتاد بيو ان ينزل به كلما حل مدينة باريس ، اما هو شخصيا فاتجه باقصى سرعة تستطيعها الخيل على طريق فرساي .

وكان الوقت متأخرا ، بيد ان هذا لم يكن يعني جيلبير ، فمن كانوا على شاكلته لا بد لهم من العمل والحركة والنشاط . وربما كانت تلك

الرحلة المتعبة عقيمة بغير ثمرة ، ولكنه كان يفضل رحلة عقيمة على ان يبقى في مكانه لا يتحرك ولا ينشط ، فاصحاب الطبائع العصبية والامزجة الحارة قد يتحملون اسوأ النتائج وأمر الحقائق عن يقين ، ولكنهم لا يستطيعون احتمال عذاب الشك والقلق .

وكان وصوله الى فرساي بعد الساعة العاشرة بنصف ساعة . وهي ساعة متأخرة ، يستغرق الناس فيها في نعاس عميق في الاحوال العادية، اما في تلك الليلة فلم يغمض لاحد في فرساي جفن مما أحدثه الاستيلاء على الباستيل ، لانها كانت في جميع العصور مدينة الملكية وقلعتها الحصينة فسكانها يدينون باحترام ديني أشبه بالتقديس ان لم يكن للملك فللملكية ، وكأني بهذا التقديس عنصراً من عناصر هوائها او خاصة من خواص تربتها ، وذلك في الواقع امر خال من الغرابة ، أفليس اهل فرساي قد عاشوا اجيالا بعد اجيال في جيرة الملوك ، مستظلين بظلهم ، مرهوبين بأبهتهم ، مبهورين بفخامة حياتهم ، منتفعين بسخائهم وبالرواج الذي تحدثه فيهم ابهة الملوك ونفقات حاشيتهم الطائلة ؟ واليسوا قد درجوا منذ الطفولة على تنسم عبير العطور الملكية مع ما يستنشقون من هواء ، حتى بات قريبا من نفوسهم وخواطرهم ، وان يظنوا انفسهم بحكم الجوار والعشرة ملوكا بين سائر سكان باريس ؟

فلا عجب اذن ان تبيت فرساي كلها ساهرة واجفة القلب في تلك الليلة التاريخية التي توسطت يومي ١٤ و١٥ يوليه سنة ١٧٨٩ ، وكل فرد فيها متشوق قلق أن يعلم ماذا سيكون جواب ملك فرنسا على تلك الاهانة التي وجهت الى العرش وذلك الجرح المميت الذي أصيب به سلطانه . فلئن كانت كلمة ميرابو المشهورة لكبير الامناء في الجمعية الوطنية حين تلا عليهم امر الحل الصادر من الملك :

«نحن هنا بامر الامة ، ولن نخرج الا على اطراف الاسنة» .

لئن كانت هذه الكلمة صفعة على خد الملكية الاسيل ، فان سقوط الباستيل كان طعنة اصابت فؤاد الملكية في السويداء .

ومع هذا فان صغار الاحلام وضعاف العقول من أنصار الملكية المتعصبين كانوا يرون بنظرهم القصير ان المسألة لا تزال سهلة الحل قريبة المنال ، فالعسكريون على وجه الخصوص لم يكونوا يتصورون شيئا سوى استخدام القوة الغاشمة وما يمكن ان يترتب عليه من انتصار ظاهري أحمق ، ولهذا كان رأيهم جميعا الزحف على باريس ، فان ثلاثين الف جندي وعشرين بطارية من المدافع كفيلة ان تلاشي غرور اهل باريس وتسحق قلوبهم

ومقاومتهم .

اما المعتدلون من النصحاء والمستشارين فكانوا يرون ايضا ان الحل بسيط ، فما على الملك الا ان يأخذ قرارا من الجمعية الوطنية باستنكار اعمال العنف التي اقدم عليها الغوغاء ، ولا شك ان الجمعية الوطنية لن تتردد في اصدار ذلك القرار ، الذي يستخدم بعد ذلك ذريعة لانزال العقاب الصارم بأهل باريس ، كما ينبغي ان يعاقب الوالد عقوق الابناء بالشدة والحزم .

ولكن بعيدا عن هذه الاوساط الراقية المحيطة بالبلاط كان المشاهد يرى سحنا غريبة غير مألوفة في فرساي ، حضرت في الغالب من باريس ، فتجمع حولها الاهالي من العامة يستمعون لارائهم واقوالهم :

ـ لقد انقضت ثمانية قرون والشعب يكافح كفاحا مستمرا فماذا جنى من ثمرات ذلك الكفاح ؟ لا شيء ! لم يحصل على حقوق اجتماعية او سياسية . فليس مصير الشعب الا كمصير بقرة الفلاح ، يؤخذ منها وليدها فيباع او يذبح ، ويحلب منها لبنها فيشرب او يباع ثم تذبح هي في آخر المطاف ليباع لحمها في الاسواق ، ويدبغ جلدها ليكون احذية وقفازات. ولئن تكونت اخيرا الجمعية الوطنية ، فلم يكن ذلك من تلقاء ارادة الملك ، بل بضغط الظروف . فاذا كان اخواننا في باريس قد قاموا بنصيبهم من الكفاح اليوم ، فيجب ان نشترك نحن معهم فنحث الجمعية الوطنية على انجاز مهمتها وحصول الشعب على حقوقه حتى يعم الرخاء وتنتصر الحرية . فالى الامام ايها المواطنون ، فلم يكن الباستيل الا نقطة الدفاع الامامية من حصن الطغيان ، وقد سقط الباستيل ، وصرنا الان امام الحصن الحقيقي وجها لوجه .

وهكذا كان الراي العام الشعبي يتكون حتى في فرساي نفسها يتكون ويختمر ، ممهدا لقيام تلك الحرب الاهلية .

وقد لاحظ جيلبير جملة من هذه التجمعات ، وتعرف الى تيارات التفكير العام ، ثم اتجه مباشرة الى القصر الذي كانت تحرسه كتائب عسكرية كثيرة العدد لحمايته مما لا يستطيع انسان ان يتكهن به من الاحتمالات في تلك الظروف .

ومع ذلك استطاع جيلبير بغير صعوبة ان يجتاز الفناء الخارجي حتى وصل الى البهو دون ان يسأله انسان الى اين هو ذاهب او ماذا يريد . فلما بلغ البهو المستدير استوقفه احد الحراس ، فأخرج جيلبير الخطاب واظهر له توقيع البارون دي تكار ، فنظر فيه الحارس ثم قال :

ــ ان الامر الصادر الي يا سيدي الا اسمح لاحد بزيارة الملك امـــر قاطع ولكن لما كانت لرسالة المسيو دي نكار اهمية خاصة لم تكن فـــي الحسبان حين صدور هذا الامر . ولما كنت ولا شك بحضورك في هذه الساعة من طرف البارون تحمل انباء هامة الى جلالته ، لهذا ابيح لنفسي ان اخالف الاوامر واسمح لكم بالدخول على مسئوليتي الخاصة .

فدخل جيلبير .

ولم يكن الملك في جناحه الخاص بل في حجرة المجلس المخصوص . اذ كان يستقبل وفدا بعثته اليه هيئة الحرس الوطني في باريس بالتماس بتسريح القوات المحيطة بالمدينة وتكوين حرس من المواطنين ، ملتمسين ايضا من جلالته ان يشرف عاصمة ملكه .

وقد اصغى لويس لتلك الطلبات بفتور ، ثم اجاب في النهاية بـــأن الحالة تستدعي شيئا من التفكير وامعان النظر ، وانه بصدد النظر فـــي الموضوع مع مجلسه المخصوص .

وانصرف اعضاء الوفد فانتظروا في الردهة في حين اختلى الملـــك بأعضاء المجلس المخصوص ولكن اشباح اعضاء المجلس كانت تبدو من اجزاء الابواب الزجاجية ، فتمكن اعضاء الوفد من ملاحظة حركاتهم التهديدية الثائرة ، وتوقعوا لهذا ان يكون القرار برفض طلباتهم .

والواقع ان الملك اكتفى بأن قال انه سيعين فريقا من الضباط لذلك الحرس الوطني وانه سيأمر القوات المعسكرة في ساحة مارس بالتراجع. اما عن حضوره الى باريس ، فانه لن يظهر هذا الرضى السامي الا بعد ان تخلد المدينة المتمردة الى السكينة والخضوع التامين .

وراح اعضاء الوفد يلحون ويتذللون ، بيد ان الملك قال ان قلبه مكتئب ونفسه حزينة ، ولهذا فانه لا يستطيع ان يصنع شيئا في الوقت الحاضر. ثم انسحب جلالته الى جناحه الخاص وهناك وجد جيلبير وبالقرب منـــه الحارس الذي اذن له في الدخول . فلما رآه الملك قال :

ــ ماذا يراد مني ؟

فاقترب الحارس من الملك وراح يعتذر له عن مخالفته للاوامر بالنسبة لهذه الحالة الاستثنائية وفي هذه اللحظات كان الدكتور جيلبير قد انتهز الفرصة لتفحص وجه الملك الذي لم يكن قد رآه منذ سنوات طويلة ، فلم يجد في ذلك الجسد القصير البدين مرونة ولا مهابة ، ولم يجد في ذلك الجبين الضيق ما يبشر بقوة العقل ، وشعر بما هناك من عدم التكافـؤ بين قوته الجسدية ومواهبه العقلية الضئيلة التي لا تتفق مطلقا مع المكانة

السامية التي حباه القدر بها . فكان الشعور الذي احس به الدكتور جيلبير لاول وهلة ، لا من تأثير الاحترام ولكنْ بسبب الحزن لضعف الرجاء في ذلك الرجل .

وتقدم الملك نحوه قائلا :

ـ هل تحمل الي رسالة من المسيو دي نكار ؟

ـ اجل يا مولاي . ـ اعطنيها حالا !

وقد خرجت هذه الكلمات الاخيرة من فمه في لهفة اشبه ما يكون بلهفة الغريق .

وقدم جيلبير الخطاب للملك ، ففتحه وقرأه بسرعة شديدة ، ثم اشار بيده الى الحارس في حركة لا تخلو من رشاقة النبالة .

ـ اتركنا الان يا مسيو دي فاريكور .

فخرج حارس الشرف وبقي الملك وجيلبير وحدهما . ولم تكن الحجرة مضاءة الا بمصباح واحد ، وكأننا بالملك وقد خفف الاضاءة الى اقل حد ممكن حتى لا يلاحظ من في حضرته ما يثقل جبينه من قلق واهتمام ، وسدد الملك الى جيلبير نظرة صافية نافذة لم يكن جيلبير يعتقد انه قادر على تسديدها بهذا العمق ، ولكنها فيما تظهر طبيعة يكسبها الناس من سمو المنصب والنشأة في كنف السلطان وتعود الامر والنهي والتصرف المطلق . ثم قال لجيلبير :

ـ اصحيح ايها السيد انك مؤلف المذكرات التي كثيرا ما ادهشتني ؟

ـ اجل يا مولاي . ـ وكم عمرك ؟

ـ اثنتان وثلاثون سنة يا مولاي . بيد ان التجارب ومصائب الدهر ضاعفت سني ، فلك ان تعاملني كما لو كنت من المعمرين .

ـ ولماذا اغضيت حتى الان عن تقديم نفسك الينا ؟

ـ لانني لم أرد يا مولاي ان اجاهر بما كنت استطيع كتابته الى جلالتكم بحرية اشد وسهولة اعظم .

فسكت لويس برهة ثم قال :

ـ أليس هناك سبب اخر ؟ ـ كلا يا مولاي .

ـ واين نكار الان ؟

ـ على اتم استعداد يا مولاي لاطاعة اوامر جلالتكم .

فتنهد لويس السادس عشر ثم قال :

ـ خيرا صنع . فاني سأحتاج اليه قريبا ، ولا ينبغي في السياسة ان يكون الانسان متعنتا ، فكلنا نحسب اننا نحسن صنعا ، فاذا بنا

نسيء بل اننا نحسن صنعا فعلا ولكن الاحداث الخارجة عن ارادتنا تبدل النتائج وتفسد التدبيرات ، ثم يقع على رؤوسنا وزر الاساءة او الخطأ . هكذا السياسة يا سيدي .

ثم تنهد لويس محسورا ، فبادر جيلبير الى الترفيه عنه قائلا :

ـ مولاي ، ما ابدع تفكير جلالتكم . ولكن ما يلزمنا في الوقت الحاضر هو النظر في المستقبل نظرا اصفى واصدق مما مضى .

فرفع الملك راسه وعقد ما بين حاجبيه ، فقال جيلبير :

ـ عفوك يا مولاي ، اني رجل طبيب صناعته العلاج . وحين يحدق الخطر من عادتي ان أتكلم في صميم الموضوع وبصراحة وبايجاز ، فأرجو الا يؤخذ جلالتكم بلهجتي هذه .

ـ هل أفهم من هذا انك تعلق كبير اهمية على الشغب الذي وقع اليوم في عاصمتنا ؟ ـ مولاي ! مولاي ! انه ليس شغبا .

ـ اي شيء هو اذن ؟ ـ ثورة !

ـ وهل تطلب مني ان اتفاهم واتهاون مع ثوار قتلة ؟ لقد استولوا على الباستيل عنوة وذلك وحده تمرد وعمل ثوري ، ثم قتلوا المسيو دي لوناي ونائبه المسيو دي لوم وعمدة باريس المسيو دي فليسيل . فهم قتلة سفاكون سفاحون .

ـ ارجو من جلالتكم في هذا المقام ان تراعوا شيئا من التفريق الدقيق . فالذين استولوا على الباستيل ابطال . اما الذين قتلوا دي فليسيل ودي لوناي فقتلة سفاكون سفاحون .

فاحمر وجه الملك عند سماع هذه الكلمات شيئا ما ، ثم شحب وجهه وابيضت شفتاه ونضح جبينه بقطرات من العرق وقال :

ـ انت على حق يا سيدي . فانت كما قلت طبيب ، او بعبارة ادق جراح . لانك تقطع قطعا عميقا سريعا باترا . ولكن دعنا من هذا ولنعد الى موضوع المقابلة . انت الدكتور جيلبير أليس كذلك ؟ او هذا على الاقل هو الاسم الذي كنت توقع به مذكراتك .

ـ مولاي . انه لشرف عظيم لي ان تذكرون جلالتكم مذكراتي ، ولهذا يحق لي ان أزهو ، وان كنت لا ارى ما يشجعني على الاعتزاز بهذا الاسم .

ـ ولماذا ؟

ـ لان اسمي لا بد انه قد ذكر أمام جلالتكم في ظروف معينة ، وذلك منذ وقت غير طويل . ـ لست ادري ما ترمي اليه .

ـ منذ ستة ايام يا مولاي القي القبض علي والقي به في الباستيل وقد

سمعت اخيرا انه ما من امر بالقبض على انسان لاسباب سياسية الا بعد علم الملك .

ففغر الملك فاه واتسعت حدقتاه وقال : — انت في الباستيل ؟!

— هذه هي صحيفة السجل التي تدل على دخولي السجن ، ومنها يفهم انني سجنت منذ ستة ايام بأمر الملك ، الى ان خرجت من الباستيل الساعة الثالثة عصر اليوم بأمر الشعب .

— اليوم ؟ — نعم يا مولاي . الم تسمع قصف المدافع ؟

— بكل تاكيد .

— لقد كانت هذه المدافع تفتح لي ابواب الباستيل .

— آه . اكاد اقول انني مسرور لما حدث ، لولا ان المدافع التي اطلقت هذا اليوم على الباستيل لم تصبه وحده ، بل اصابت الملكية معه .

— بالله يا مولاي لا تجعل من سجن رمزا لمبدأ وعنوانا لنظام ، بل الاولى ان تقول انك مسرور لسقوط الباستيل ، لان معنى ذلك انه من تقذف المظالم بعد اليوم باسم الملك وهو بريء لا يعلم عنها شيئا كما حدث في حالتي انا شخصيا .

— ولكن لا بد يا سيدي ان لسجنك سببا .

— هذا ما لا اعلم عنه شيئا يا مولاي فقد قبض علي وانا عائد الى فرنسا وزج بي في الباستيل بغير تحقيق او تبرير . وهذا مجمل علمي .

— الست ترى يا سيدي انك لا تخلو من انانية اذ تأتي الان لتحدثني في شانك ، وشاني انا أولى بالحديث .

— مولاي ، كل ما اطلبه هو جواب سؤال واحد .

— وما هو ؟ — هل كانت لجلالتكم اصبع في سجني .

— بل اني لم اكن اعلم مجرد عودتك الى فرنسا .

— لقد اثلج صدري ان اعلم هذا يا مولاي . فانني اصبحت اعتقد انه حينما ينسب الى جلالتكم خطأ من الاخطاء فذلك في الغالب فرية ، وسيكون في وسعي ان اجعل من نفسي مثالا وشاهدا على ذلك .

فابتسم الملك وقال :

— انك لعمري طبيب يحسن صب البلسم في الجراح .

— مولاي . سأكثر من البلسم في الجرح . واذا شئتم جلالتكم ساتولى شفاء الجرح .

— ليس احب الي من هذا .

— يجب لهذا ان تكون ارادتكم حازمة خالصة يا مولاي . وقبل ان

نمعن في الموضوع ، ارجو ان تقرأ جلالتكم هذا السطر المكتوب على هامش الخطاب المختوم الصادر بسجني .

فقرأ الملك السطر واذا به «بناء على طلب الملكة» . فقطب الملك حاجبيه وقال : ــ هل بدر منك ما كدر الملكة ؟

ــ انا واثق أن جلالتها تعرفني معرفة اقل كثيرا من معرفة جلالتكم .

ــ أواثق انت ان الخطاب المختوم صادر عن جلالتها مباشرة ؟

ــ انا لا ازعم هذا . بل الراجح ان جلالتها اوصت بإجابة طلب من التمسوا سجني . ــ ومن الذي التمس منها سجنك ؟

ــ انظر بنفسك يا مولاي .

فنظر الملك ثم صاح في دهشة :

ــ الكونتس دي شارني ! ما اعجب هذا ! ولماذا تطلب سجنك ؟

ــ انني يا مولاي لم اكن اعرف حتى اسم هذه السيدة قبل هذا الصباح حينما قرأته في سجلات السجن .

فتمتم الملك وهو يمر بيده فوق جبهته :

ــ شارني . ربة الفضيلة والطهارة والرقة !

ــ ها انت ذا ترى يا مولاي انه قد زج بي في الباستيل بناء على طلب هذه الاقانيم العلوية الثلاثة !

ــ لا بد لي من ان اجلو سر هذه المسألة .

ثم جذب جلالته حبل الجرس فدخل حاجب قال له الملك :

ــ انظر لي هل الكونتس دي شارني لدى الملكة . واطلب اليها الحضور الى مكتبي لأمر هام .

منوم مغناطيسي

عندما سمع جيلبير امر الملك باستدعاء الكونتس دي شارني انسحب فوقف بجوار احدى النوافذ .

اما الملك فكان يتمشى في الحجرة وهو مستغرق في التفكير ، يتنازعه في ذلك ما يحيط به من ظروف عامة وما أحس به من التأثير بذلك الشخص الجريء الغريب الاطوار .

وفجاة فتح باب المكتب واعلن الحاجب حضور الكونتس دي شارني . فنظر جيلبير وهو مختف وراء ستائر النافذة فابصر امراة تملأ اثوابها

الحريرية الفضفاضة فرجة الباب . وكان ثوبها رمادي اللون مزركشا تنم تفصيلته عن جمال تكوينها الذي زادت في ابراز محاسنه حبكة الصدار وارتفاع كعب الحذاء .

وتقدم الملك خطوة لمقابلتها وهو يقول :

ـ لقد قيل لي أنك كنت بسبيل الخروج يا كونتس .

ـ الحق يا مولاي انني كنت على وشك الركوب حين تلقيت امر جلالتكم .

فلما طرقت سمع جيلبير نغمات صوتها الحازم ، اصابه دوار وصعد الدم الى وجنتيه وانتابته رعدة عنيفة كأنما اتصل جهازه العصبي بتيـــار كهربائي سريع الذبذبة . والقى نفســه دون ان يدري يخرج من بين الستائر التي كان مختفيا بها ويغمغم :

ـ انها هي . هي . اندريه (وهو اسمها) .

واستطرد الملك الذي لم يلحظ لا هو ولا الكونتس بروز جيلبير مــن وراء الستائر لانه كان واقفا في الظل المعتم :

ـ لقد طلبت اليك زيارتي لأحصل منك على بعض المعلومات .

ـ اني على أتم استعداد لتلبية رغبات جلالتكم .

وتراجع جيلبير تدريجيا حتى اختفى ثانية وراء الستائر .

ـ سيدتي . منذ نحو ثمانية ايام طلب من البارون دي تكار أمر مختوم بالقبض على شخص .

وكان جيلبير قد ثبت نظره علي خـلال فرجة الستائر . فرآهـــا شاحبة كالمحمومة ، وقد ظهر على وجهها القلق ولم تجب الملك فاستطرد قائلا يستوضحها :

ـ هل سمعت سؤالي يا كونتس ؟ ـ اجل يا مولاي .

ـ فهل فهمته ؟ وهل في وسعك الجواب ؟ ـ اني أحاول ان أتذكر .

ـ اسمحي لي ان اقدم بعض المساعدة لذاكرتك يا كونتس . لقد كنت انت طلبت هذا الامر المختوم . وقد اوصت الملكة بخطها على الطلب دون ان توقع التوصية بامضائها .

وبدلا من ان تجيب الكونتس زاد ارتباكها الشديد وترنحت فنفذ صبر الملك وقال بشيء من الحدة : ـ اجيبي يا سيدتي .

فأجابت الكونتس وهي ترتعد بشكل ظاهر :

ـ هذا صحيح . لقد حدث هذا يا مولاي . وقد كتبت الطلب واشرت عليه الملكة بالتوصية .

ـ اخبريني اذن ما هي الجريمة التي اقترفها ذلك الشخص الـذي

طلبت القاء القبض عليه .

ــ مولاي . لا استطيع ان اصرح لك بحقيقة هذه الجريمة ، ولكنني استطيع ان اقول ان تلك الجريمة من الخطر بمكان .

ــ الا تستطيعين التصريح حتى لي شخصيا ؟

ــ كلا يا مولاي !

ــ اذن ستصرحين بالحقيقة يا سيدتي للشخص صاحب الشان . فما ابيته على لويس السادس عشر ملك فرنسا ، يجب الا تأبيه على الدكتور جيلبير . فصاحت الكونتس كالمذعورة :

ــ الدكتور جيلبير ؟! يا الهي ! وأين هو اذن ؟

فانتحى الملك جانبا وانفرجت الستائر وظهر الدكتور بوجه يضاهـــي وجه الكونتس شحوبا وقال :

ــ ها هو ذا يا سيدتي .

فما ان وقعت عليه عينا الكونتس حتى ترنحت وخانتها ساقاها ومالت الى الوراء شأن من يوشك على الاغماء ، فكادت تسقط على الارض ، لولا اعتمادها على ظهر بعض المقاعد . واستطرد جيلبير :

ــ سيدتي . اسمحي لي ان اكرر على مسامعك السؤال الذي وجهه اليك منذ لحظة جلالة الملك .

وشوهدت شفتا الكونتس تتحركان ، ولكن لم يخرج منهما اي صوت. فعاد جيلبير يسألها :

ــ اي ذنب اقترفته يا سيدتي حتى يصدر امرك بالقائي في غياهب ذلك السجن ؟

فلما وقع على سمعها صوته انتفضت كمن تمزقت أوتار قلبها ولكنهـــا سيطرت على اعصابها بسرعة ورمقت جيلبير بنظرة باردة كنظرة الثعبان السام وقالت :

ــ انا يا سيدي ؟ انا لا اعرفك ابدا . .

ولكن في حين كانت تنطق بهذه الكلمات كان الدكتور جيلبير من ناحيته قد ركز فيها نظراته وقد شحنها باقصى ما يستطيع من البريق والجراة ، بحيث حمل الكونتس على الاغضاء فقال الملك موجها اليها الخطاب :

ــ يا كونتس . ها انت ذي ترين مدى ما يمكن ان يحدثه ســـــوء استخدام التوقيعات من أثر سيء . فهذا سيد لا تعرفينه كما اعترفت الان ، وهو طبيب حاذق مشهور ولا يمكن ان يكون موضع اتهام باي شيء.

فرفعت اندريه راسها ورمقت جيلبير بنظرة كراهية صاعقة ، بيد انه

ظل على حاله من الهدوء والكبرياء . واستطرد الملك :
ـ اقول يا سيدتي انك قد تورطت بذلك الطلب في معاقبة شخص بريء بدلا من شخص اخر . وهذا خطأ فاحش .
فقالت اندريه محتجة : ـ مولاي ..
واحس الملك بالخطر الذي يخشاه دائما ، وهو اغضاب احد المقربين الى زوجته ، فقال متلطفا :
ـ انا اعلم يا كونتس انك رقيقة القلب ، وانك حين تعاقبين شخصا فلا بدا ن يكون قد اقترف ما يستحق من اجله ذلك العقاب . ولكنك ترين انه ينبغي مراعاة التدقيق في المستقبل حتى لا يتكرر مثل ذلك الخطأ الفاحش . ثم انتحى نحو الدكتور جيلبير فقال له :
ـ وانت يا دكتور ها انت ذا ترى ان الخطأ هو خطأ العصر لا خطأ البشر . فقد ولدنا في الفساد والانحلال . وسنحاول جهد استطاعتنا ان نحسن الحالة ، وانا واثق يا دكتور جيلبير انك ستكون خير معين لي في ذلك .
ثم سكت لويس السادس عشر وهو يحسب انه قد قال ما فيه الكفاية لارضاء الطرفين . ولكن الطرفين لم يجدا في ذلك المقال ما يكفي لارضائهما ، فقال جيلبير :
ـ باذن جلالتكم يا مولاي ساطلب من الكونتس ان تعيد ما قالته منذ لحظة من انها لا تعرفني .
فقال الملك :
ـ هل لك يا كونتس في اجابة طلب الدكتور .
فقالت اندريه في صوت حازم ثابت :
ـ انا لا اعرف الدكتور جيلبير .
ـ ولكنك تعرفين جيلبير اخر ، يدعى باسمي ، ذلك الذي القيت على راسي جريمته في نظرك .
ـ اجل اعرف ذلك الشخص . واعتبره نذلا ساقطا .
فالتفت جيلبير الى الملك وقال له :
ـ مولاي . لا يليق بي ان استجوب الكونتس . ولكن هل لكم في التفضل بسؤالها عن ذنب ذلك الشخص ؟
ـ اعتقد يا كونتس انك لا يمكن ان ترفضي مثل هذا الطلب .
ـ ذنبه ؟ لا شك ان الملكة تعرف هذا الذنب ما دامت جلالتها قد كتبت بخط يدها موصية على تنفيذ طلبي بالقبض عليه .

ـ ولكن لا يكفي يا كونتس ان تكون الملكة قد اقتنعت . فلا بد ايضا من ان أقتنعَ انا فالملكة هي الملكة حقا ، ولكن انا الملك .

ـ أعلم اذن يا مولاي ان المدعو جيلبير المشار اليه في امر القبض قد اقترف منذ ستة عشر عاما جريمة مروعة .

فقال جيلبير للملك :

ـ ارجو يا مولاي ان تسأل الكونتس كم عمر ذلك الرجل في يومنا هذا لو انه حي يرزق .

فالقى الملك السؤال على الكونتس فاجابته :

ـ ما بين الثلاثين والثانية والثلاثين .

ـ اذن يا مولاي من اقترف تلك الجريمة لم يكن رجلا من ست عشرة سنة بل كان طفلا . واذا كان الرجل طول هذه الاعوام الستة عشر قد اظهر الندم على ما اقترفه الطفل فهل لا يستحق ذلك الرجل شيئا من التسامح والعطف ؟ ـ ولكن هل تعرف يا سيدي اذن هذا الشخص ؟

ـ أجل أعرفه يا مولاي .

ـ وهل لم يقترف جريمة اخرى بخلاف تلك التي اقترفها في شبابه الباكر منذ ستة عشر عاما ؟

ـ انا لا علم لي بانه منذ تلك الجريمة قد فعل ما يلام عليه .

فصرخت الكونتس بعصبية قائلة :

ـ فيما عدا انه كان يغمس قلمه في السم ويؤلف المفتريات السافلة والمقذعة .

ـ ارجو يا مولاي ان تسأل الكونتس اذا كان امر القبض على ذلــك المدعو جيلبير لم يكن المقصود به في الحقيقة تمكين اعدائه ، او بالاحــرى تمكين عدوه ، من الاستيلاء على صندوق معين ، بداخله اوراق معينة ، تمس سيدة كبيرة في المقام من سيدات البلاط .

وارتعدت فرائص اندريه ، وقالت بصوت مرتجف :

ـ سيدي ! فسألها الملك وقد لاحظ ارتجافها وشحوبها :

ـ ما شأن هذا الصندوق يا كونتس ؟

اما جيلبير فصاح وقد ادرك ان زمام الموقف قد صار في يده :

ـ لا داعي يا سيدتي للرياء والمواربة . فانا جيلبير الذي اقترف تلك الجريمة القديمة . وانا جيلبير صاحب الصندوق المسروق . وانت السيدة الكبيرة المقام بين سيدات البلاط التي تمسها الاوراق التي بداخل ذلــك الصندوق . واني أحتكم الى الملك وأقبل حكمه سلفا . وسنخبر قاضينا

كل ما حدث بيننا ، حتى يحكم بالعدل .

ـ قل ما شئت يا سيدي . اما انا فلن اقول شيئا . فانا لا اعرفك !

ـ ولا تعرفين الصندوق ايضا .

فقبضت الكونتس يدها وعضت شفتيها الشاحبتين حتى ادمتهما ثم قالت : ـ لا اعرف عنه اكثر مما أعرف عنك .

ـ احذري يا سيدتي . فانا تلميذ جوزيف بلسامو ، والتأثير الذي كان له قد أورثني اياه . واني اسالك للمرة الاخيرة ماذا صنعت بصندوق المسروق ؟

ثم راح يحدق فيها وهي ترتجف كورقة في مهب الريح ، ثم صاحت كالمذعورة وهي تحاول الفرار من الحجرة : ـ كلا كلا .

فرفع جيلبير يده وقد شحب وجهه وصاح بصوت حازم :

ـ تكلمي يا اندريه ، وليكن قلبك الحجري تحت ضغط ارادتي القاهرة، تكلمي واكشفي النقاب عن روحك الحقيقية وعما تخفيه في طوايا سريرتك كي يطلع الملك الان على ما لا يعلمه من خباياك الا الله . نامي يا كونتس نامي وتكلمي . هذه ارادتي !

وما ان نطق هذه الكلمات حتى تسمرت الكونتس في مكانها ومدت ذراعيها الى الامام ثم سقطت بين ذراعي الملك الذي كان يرتجف هو ايضا، فاجلسها في مقعد ثم قال للدكتور جيلبير :

ـ لقد سمعت عن اشياء من هذا القبيل ، ولكنني لم اشهد مثل هذا قبل الان . أليس هذا هو التنويم المغناطيسي ؟

ـ نعم يا مولاي . والان خذ راحة الكونتس بين يديك واسألها لماذا تسببت في سجني .

فاطاع الملك كالمذهول وسألها :

ـ هل انت يا كونتس التي تسببت في اعتقال الدكتور جيلبير ؟

ومع ان الكونتس كانت قد نامت فعلا الا انها بذلت مجهودا اخيرا للمقاومة فصاحت : ـ كلا . لن اتكلم .

فنظر الملك الى جيلبير وكأنه يتساءل اي الارادتين ستتغلب ، ارادة الدكتور أم ارادة اندريه ، فابتسم الدكتور وقال :

ـ أانت حقا لن تتكلمي ؟

وثبت عينيه في المراة النائمة وتقدم نحوها فارتعدت ثم تصلبت عضلاتها وصاح الملك :

ـ احذر . احذر كي لا تقتلها .

ـ لا تخف يا مولاي . فاني اروض روحها فقط .

ثم رفع يديه وصرخ فيها : ـ تكلمي !

فكادت عضلاتها تنفجر من فرط التوتر ، وظهرت عليها اعـــراض شبيهة باعراض الشلل .

فصرخ الملك مذعورا ، ولكن جيلبير لم يعبأ وصاح :

ـ تكلمي قلت لك ! هذه ارادتي !

فاطلقت اندريه آهة ثم انفجرت الدموع من عينيها المغمضتين :

ـ يا الهي . يا الهي .

ـ استنجدي بالله ما شئت ، فان من يعمل باسم الله لا يخاف الله .

ـ كم اكرهك ! اكرهيني ما شئت ولكن تكلمي .

ـ مولاي . قل له انه يقتلني . ـ تكلمي بغير تلكؤ .!

ثم اشار الى الملك انه يستطيع الان ان يسالها فقال الملك :

ـ لقد كان الدكتور جيلبير اذن هو الذي اردت القبض عليه ؟

ـ نعم هو . ـ ولم يكن هناك خطأ او التباس ؟

ـ على الاطلاق . ـ والصندوق ؟

ـ وهل كان في وسعي ان اترك ذلك الصندوق في حوزته .

وعندئذ تبادل الملك وجيلبير النظرات ، ثم سالها الملك :

ـ وهل اخذت ذلك الصندوق منه ؟

ـ بل كلفت من اخذه منه . ـ خبريني اذن كيف دبرت ذلك ؟

ـ لقد علمت ان هذا المدعو جيلبير على وشك الحضور للاقامة فـــي فرنسا نهائيا . ـ ولكني اسالك عن الصندوق .

ـ وكنت قد علمت انه قد ترك الصندوق في حوزة احد فلاحيه .

ـ وكيف علمت ذلك ؟

ـ ذهبت الى مسمر العالم المغناطيسي ، فنومني ورايت الصندوق .

ـ واين كان ؟

ـ في دولاب ملابس كبير بالدور الارضي ، مخبوءا تحت كومة مـــن الثياب والملاءات البيضاء ..

ـ هذا عجيب . وبعد ذلك ماذا فعلت ؟

ـ توجهت الى منزل مدير البوليس الذي كانت الملكة قد اوصته بي خيرا فوضع رجلا من امهر رجاله تحت تصرفي . ثم توجه ذلك الرجل الى الريف واستولى على الصندوق . ـ واين هذا الصندوق الان ؟

ـ في منزلي بفرساي . ـ في اي حجرة ؟

ـ في قاعة الاستقبال . ويجب ان اخفيه ، لاني ارى الان ان المسيو دي شارني الذي كان موعد حضوره غدا ، سوف يحضر الليلـــة بسبب الحوادث الاخيرة ، فيجب ان اخفي الصندوق قبل حضوره .

فقال جيلبير للملك :

ـ ها قد سمعت يا مولاي ان الصندوق يخصني .

ـ اسرع بإيقاظها من فضلك وسابعث بضابط من ضباط حرسي لاحضار الصندوق من بيت الكونتس .

ـ افضل نقلها الى جناح الملكة ، وان تترك حتى تستيقظ وحدهـا تجنبا لموقف محرج اذا ايقظتها الان . واني على استعداد ان اطلع مولاي على الاوراق التي في الصندوق ليتأكد من انها تتعلق بشرف سيدة واحدة هي الكونتس دي شارني .

ـ لا داعي لهذا . فالصندوق ملكك والاسرار التي فيه ملكك وحدك . وهل من خدمة بعد هذا أؤديها لك يا دكتور ؟

ـ التمس يا مولاي ان تقربني من جلالتكم حتى أتمكن من خدمتكم .

ـ ماذا تعني ؟

ـ اتمنى ان اكون الطبيب الدائم لجلالتكم في الامور العادية . فذلك يتيح لي الاتصال المستمر بجلالتكم .

ـ موافقون . والان مع السلامة ولا تنس تبليغ تحياتي الى نكار .

فخرج جيلبير ، وسمع الملك يصيح بلهفة طالبا العشاء ، فان الحوادث والاحداث مهما جلت ، لم تكن لتنسي جلالته عشاءه .

طبيب الملك

كان لنقل الكونتس دي شارني الى جناح الملكة وهي نائمة تنويمـا مغناطيسيا ما قدره الدكتور جيلبير من الاثر لدى الملكة . فلما استيقظت الكونتس بعد اربعين دقيقة كما امرها جيلبير ، روت لها ما فعله بها جيلبير من التنويم ، فأثر ذلك على الملكة تأثيرا هائلا ، لان التنويم كان شيئـا جديدا جدا على العالم في ذلك الوقت ، وانزعجت سريرتها الملكيـة انزعاجا شديدا .

ثم لم تلبث ان علمت الملكة ان جيلبير هذا قد عين طبيب الملك الخاص ، كما علمت انه بكتاباته كان سبب الثورة التي اسقطت الباستيل ، فباتت

ليلتها في شر حال .. وهي تتصور ذلك الطبيب في صورة وحش سام هائل . سام لانه اضاع شرف أندريه كونتس دي شارني وقد كان عشيقا لها وهو بعد غلام يافع ، وهو هائل مرعب لانه عدو شديد المراس تسبب في سقوط الباستيل .

فكان من الضروري ان تعرفه كي تتحاشاه او كي تستخدمه وتفيد منه . فلا بد على كل حال من الحديث الى ذلك الرجل واختباره عن قرب والحكم عليه حكما شخصيا مباشرا .

وكان ثلاثة أرباع الليل قد انقضى دون ان يغمض لها جفن ، ثم غامت نظراتها في الساعة الثالثة واستولى عليها النعاس فنامت في مقعدها قرب النافذة المفتوحة . فحلمت انها كانت تتمشى في حديقتها الاثيرة في قصر التريانو ثم ظهر لعينيها بين أحواض الورد مخلوق خرافي يضحك في استهزاء وسخرية، وكان ذلك المخلوق الخرافي هو جيلبير الذي اخذ يمد نحوها اصابعه . وصرخت الملكة صرخة عالية .

واجابتها صرخة اخرى قريبة منها .

وكانت هذه الصرخة الاخرى صادرة عن وصيفة الشرف مدام تورزيل التي كانت قد دخلت جناح الملكة في تلك اللحظة فلما سمعت صرختها وهي نائمة لم يسعها الا ان تصرخ كذلك ثم قالت :

ــ الملكة مريضة . هل أرسل في طلب الطبيب ؟

وفتحت الملكة عينيها ، وسمعت عبارة مدام تورزيل الاخيرة فصادفت هوى في نفسها فانتهزتها فرصة وقالت :

ــ نعم أريد طبيبا . الدكتور جيلبير ، ارسلي في طلب الدكتور جيلبير.

ــ ومن هو الدكتور جيلبير ؟

ــ طبيب الملك الجديد الذي عينه بالامس فيما اعتقد ، وقد حضر اخيرا من امريكا .

فقالت احدى وصيفات الملكة التي كانت قد اقبلت مسرعة عندما سمعت صراخ مدام تورزيل :

ــ اعلم من تعني جلالة الملكة فهذا الطبيب موجود الان في حجرة انتظار جلالة الملك .

فصاحت الملكة بشيء من الدهشة :

ــ هل تعرفينه اذن ؟ ــ نعم أعرفه .

ــ وكيف ؟ انه وصل اخيرا من امريكا ومنذ وصوله اعتقل في الباستيل حتى امس . ــ ولكني اعرفه .

ـ اجيبي على سؤالي بدقة ووضوح ، اين تسنى لك ان تعرفيه ؟
ـ مولاتي . عفوك . لقد قرات كتبه . فاورثني ذلك رغبة شديدة في معرفة المؤلف ، فسعيت حتى اشاروا لي عليه .
ـ آه . ما دمت تعرفينه فاذهبي وقولي له ان الملكة مريضة ، وانها تريد ان يحضر لفحصها .
وانطلقت الوصيفة كي تستدعي الطبيب ، واذنت الملكة لسائر سيدات الحاشية فدخلن الحجرة ، وارتدت هي ثوبا مناسبا ورتبت شعرها المشعث في انتظار حضوره .

***

وان هي الا بضع لحظات حتى كانت رغبة الملكة ماري انطوانيت قد ابلغت الى الدكتور جيلبير فاثارت لديه شيئا من الدهشة الممزوجة بالقلق، ولكنه لم يظهر شيئا مما يبطن وتوجه فقدم نفسه للملكة .
وكان تأثير دخوله عليها شديدا . فقد رات فيه رجلا غير طويل القامة، هادئا ، بسيط الملبس ، رشيق الحركة ، نحيل الارامل . وراعها انه لم يعاملها عند دخوله بمراسم الخضوع التي تعودتها في البلاط . واحنقها اكثر من ذلك ان هذا العدو قد خيب ظنها في شكله . فقد كانت تتصور ان يكون ذلك العدو العنيد الذي حطم اندريه ثم حطم الباستيل رجلا عملاقا ، يهول بقوته الجسدية ، ومظاهره الوحشية ، فاذا به من أرق من عرفت في حاشيتها من النبلاء حركة واتزان اشارة وحلاوة ايماءة . فرات في ذلك داعيا جديدا للسخط عليه ، فهو المخادع المتنكر في مظهر ليس من حقه ان يظهر به ، وهو الفلاح ، المغمور النسب ، ابن الشعب وسليل العامة والدهماء .
وبنظرة من عينيها صرفت الملكة جميع الحاضرات فتسللن بسرعة . وانتظرت الملكة حتى اغلق من دونهن الباب ووجهت نظرها الى جيلبير ، فراته مثبتا نظراته عليها . وكانت هذه الجسارة تضايقها وتغضبها ، ولاسيما لان نظره كان مركزا ثابتا ، فثقل عليها ، غير انها كتمت غضبها وقالت له بلهجة قاطعة أشبه ما تكون بطلقة مسدس :
ـ لماذا تقف هكذا محدقا في ، بدلا من ان تسألني عما أشكو منه ؟
فأجابها جيلبير بهدوء شديد جدا :
ـ مولاتي . عن طريق العيون ينبغي للطبيب الحاذق ان يبدأ امتحانه

ـ اجيبي على سؤالي بدقة ووضوح ، اين تسنى لك ان تعرفيه ؟

ـ مولاتي . عفوك . لقد قرات كتبه . فاورثني ذلك رغبة شديدة في معرفة المؤلف ، فسعيت حتى اشاروا لي عليه .

ـ آه . ما دمت تعرفينه فاذهبي وقولي له ان الملكة مريضة ، وأنها تريد ان يحضر لفحصها .

وانطلقت الوصيفة كي تستدعي الطبيب ، واذنت الملكة لسائر سيدات الحاشية فدخلن الحجرة ، وارتدت هي ثوبا مناسبا ورتبت شعرها المشعث في انتظار حضوره .

***

وان هي الا بضع لحظات حتى كانت رغبة الملكة ماري انطوانيت قد ابلغت الى الدكتور جيلبير فاثارت لديه شيئا من الدهشة الممزوجة بالقلق، ولكنه لم يظهر شيئا مما يبطن وتوجه فقدم نفسه للملكة .

وكان تاثير دخوله عليها شديدا . فقد رات فيه رجلا غير طويل القامة، هادئا ، بسيط الملبس ، رشيق الحركة ، نحيل الارامل . وراعها انه لم يعاملها عند دخوله بمراسم الخضوع التي تعودتها في البلاط . وأحنقها اكثر من ذلك ان هذا العدو قد خيب ظنها في شكله . فقد كانت تتصور ان يكون ذلك العدو العنيد الذي حطم اندريه ثم حطم الباستيل رجلا عملاقا ، يهول بقوته الجسدية ، ومظاهره الوحشية ، فاذا به من أرق من عرفت في حاشيتها من النبلاء حركة واتزان اشارة وحلاوة ايماءة . فرات في ذلك داعيا جديدا للسخط عليه ، فهو المخادع المتنكر في مظهر ليس من حقه ان يظهر به ، وهو الفلاح ، المغمور النسب ، ابن الشعب وسليل العامة والدهماء .

وبنظرة من عينيها صرفت الملكة جميع الحاضرات فتسللن بسرعة . وانتظرت الملكة حتى أغلق من دونهن الباب ووجهت نظرها الى جيلبير ، فراته مثبتا نظراته عليها . وكانت هذه الجسارة تضايقها وتغضبها ، ولاسيما لان نظره كان مركزا ثابتا ، فثقل عليها ، غير انها كتمت غضبها وقالت له بلهجة قاطعة أشبه ما تكون بطلقة مسدس :

ـ لماذا تقف هكذا محدقا في ، بدلا من ان تسألني عما أشكو منه ؟

فأجابها جيلبير بهدوء شديد جدا :

ـ مولاتي . عن طريق العيون ينبغي للطبيب الحاذق ان يبدأ امتحانه

مرضاه . لهذا كان نظري الى جلالتك ليس لمجرد تطلع فضولي ، وانما هو من فنون ممارستي مهنتي .
— وهل تراني مريضة ؟
— لا بالمعنى الدقيق للكلمة . بيد ان جلالتك تعانين ارهاقا عصبيا ناجما عن الافراط في القلق .
فاجابته ماري انطوانيت في تهكم :
— لماذا لا تقول بصراحة انني في حالة انفعال وغضب ؟
— أرجو من مولاتي ان تسمح لي وقد استدعتني لامارس مهنتي ان أستخدم في التعبير عن آرائي المصطلحات الطبية .
— ليكن اذن . ولكن ما علة هذا الارهاق العصبي ؟
— جلالتك خير من يعلم ان الطبيب يعرف العلة بفحص الجسد . ولكنه ليس ساحرا حتى يعرف من اول نظرة ما يسبب تلك الآلام الجسدية مما هو مطوي في اعماق السريرة وطوايا الروح .
— من اول نظرة ؟ اتريد بذلك ان توحي الي انك ربما استطعت في النظرة او الزيارة الثانية او الثالثة ان تخبرني ، لا بعلتي فحسب ، بل وكذلك بمكنون افكاري وخواطري ؟
— قد يكون ذلك ...
فبدا على الملكة انها ترتجف غضبا من هذا الجواب الفاتر . وتعلقت على شفتيها كلمات حامية كالبراكين ، ولكنها تمالكت غضبها وقالت :
— لا بد لي من تصديقك ، فانت رجل عالم .
وادرك جيلبير ما في عبارتها من تهكم وزراية ، بيد انه اغضى وقال :
— انه لكرم عظيم من جلالتك ان تسبغي علي صفة العلم ، ولاسيما انك لم تلمسي بعد اي دليل على علمي .
— انما اردد ما سمعته عنك من الكافة .
— ولكن عقلا ممتازا كعقلك يا مولاتي لا ينبغي ان يردد اقوال العامة بغير تبصر او برهان .
— اتعني بالعامة الشعب ؟
— بل اعني بالعامة من لا عقل لهم ولا علم من اي طبقة .
— دعنا من هذا الموضوع . يقولون انك عالم . فأين تلقيت علومك ؟
— في كل مكان يا سيدتي .
— ليس هذا جوابا .
— اذن لم أتعلم في اي مكان .
— انما اردت ان تعين لي اسماء بعض الاماكن التي تلقيت فيها علومك .
— انما قلت انني تعلمت في كل مكان لانني كنت استفيد من كل ما

يقع تحت نظري في الحقل والطريق والكوخ والقصر، ومن الناس والحيوانات والحشرات ، شأن من يحب المعرفة ويتصيدها من كل منفذ .

فرمقته الملكة بنظرة هائلة ، اما هو فظل على نظرته الهادئة ، فـزاد اهتياجها حتى اضطرب ذراعها فوقعت المنضدة الصغيرة التي كان فوقها قدح الكاكاو . ورأى جيلبير سقوط المائدة وانكسار القدح ، ولكنه لم يتحرك قيد شعرة ، فتصاعد الدم الى وجنتي ماري انطوانيت ، ورفعت يدها الباردة المبللة بالعرق الى جبينها الملتهب ، ولكنها لم تجسر بعد ذلك ان ترفع عينيها الى وجهه ، وان ارتسمت على ملامح وجهها امارات حقد واحتقار ، ثم تابعت اسئلتها من حيث اوقفتها .

ــ وعلى يد اي استاذ اخذت علمك الاساسي ؟

ــ لست ادري كيف اجيب جلالتك على هذا السؤال دون جرح .

ووجدت الملكة في هذه العبارة منفذا للهجوم عليه ، فهجمت كاللبؤة .

ــ دون جرح ؟ انت تجرحني انا ؟ انت تجرح ملكة ؟ لا شك يا دكتور جيلبير انك تعلمت اللغة الفرنسية في مدرسة اقل مرتبة بكثير من تلـك التي تعلمت فيها علوم الطب . ان من كانوا في مثل مركزي لا يمكـن ان يجرحهم انسان يا دكتور جيلبير . كل ما هناك انك تستطيع ان تضايقهم، أما ان تجرحهم فلا !

فانحنى الدكتور جيلبير ثم خطا خطوة نحو الباب دون ان تكتشف على سحنته ادنى علامات الغضب او نفاد الصبر ، في حين كانت الملكة علـى العكس من ذلك تدق الارض بقدمها غضبا ، ثم قفزت من مكانها كمن تريد منعه من الخروج ، ففهم مرادها وقال :

ــ معذرة يا سيدتي لقد اخطأت حقيقة خطأ فاحشا اذ نسيت انـني دعيت كطبيب لعلاج مريضة . وانا اعتقد ان جلالتك تقتربين بسرعة مـن ازمة عصبية . وأبيح لنفسي ان اطلب اليك الا تستسلمي لها والا أفلت من يدك الزمام . وخير ما تصنعين ان تهدئي وتسترخي ، وترسلي فـي طلب احدى وصيفاتك .

فجلست الملكة واصطنعت الهدوء ثم قالت :

ــ هل اسمك جيلبير حقيقة ؟ ــ نعم اسمي جيلبير يا سيدتي.

ــ عجبا ! اني اذكر حادثة من عهد شبابي الاول لا شك انها جارحة لك اذا انا رويتها . ولكن لا اهمية لهذا لانك تستطيع بحذقك وفنك ان تداوي ما يحدث لك من الجراح .

ثم ابتسمت الملكة في سخرية وتهكم .

ـ هكذا يجب ان تبتسمي يا مولاتي ، وان تصرفي طاقتك العصبية عن طريق السخرية والتهكم . فهذه من احسن الوسائل التي يستخدمهـــا الازكياء للسيطرة على اعصابهم .

فلم تلق الملكة بالا الى الوصية الاخيرةواستطردت كانها لم تسمع شيئا:

ـ وهذه الحادثة التي اشرت اليها كما ياتي .

فانحنى جيلبير ايذانا بانه مصغ ، وحاولت الملكة ان تركز عليه نظراتها واستطردت :

ـ لقد كنت في ذلك العصر السحيق ولية العهد ، وكنت اسكن قصر التريانو . وكان في حدائقه غلام صغير اسمر اللون قذر ، تغطيه الاوحال، مشعث الشعر ، ممزق الثياب ، يعمل في قطع الحشائش ونقل الفرائس والسماد وسائر الاعمال القذرة الحقيرة .

وسكتت الملكة لحظة عن تعمد ثم قالت فجاة :

ـ وكان اسم هذا الغلام جيلبير .

فقال جيلبير بهدوء تام : ـ هو انا شخصيا يا سيدتي .

ـ انت ؟ لقد كنت اذن على حق ، فلست عالما وانما انت افاق .

ـ ان ذاكرة جلالتك في غاية القوة ، وما دامت كذلك فلا بد انها ايضا تتذكر التواريخ وقد كان ذلك الذي ذكرته الملكة في سنة ١٧٧٢ . ونحن الان في سنة ١٧٨٩ . فبين التاريخين اذن سبعةعشر عاما هي اكثر مما ينبغي لتحويل اي متشرد همجي الى متحضر عال . فلا شك ان جلالتك مخطئة في استنتاجاتها بصدد علمي ، ولاسيما انني عاصرت في امريكـا ظروفا هي انسب ما يكون لتثقيف العقل وتنميته ، وهي عهود الثورات وما فيها من نشاط الطبيعة الجامح الذي يكشف عن اسرارها ومكنوناتها. ولكن ولنترك هذا ولنعد الى موضوعنا الاصلي ، فلا اخبرتني يا صاحبـة الجلالة لماذا استدعيتني الى جناح جلالتك الخاص ؟

ـ انك تزعم العلم وتصبو الى شغل منصب الطبيب الخاص للملك ، فيجب ان تفهم منذ الان ايها السيد انني اعلق اهمية كبرى على صحـــة زوجي فلا يسعني مطلقا ان اتركها فريسة بين يدي رجل لست واثقـــة منه كل الثقة .

ـ ان جلالة الملك قد قبل استخدامي بغير تردد . والواقع انني طبيب سياسي ، رشحني لمنصبي البارون دي تكار . اما اذا احتاج جلالته الى مشورتي الطبية ، فثقي انني سأثبت من الجدارة ما لا مزيد عليه لمستزيد وثقي انني ساكون لجلالته لا طبيبا فحسب ، ولا ناصحا امينا وكفى ، بل

صديقا مخلصا ايضا .

فانفجرت الملكة في ثورة غضب جديدة قائلة :

ـ انت ؟ انت صديق للملك ؟ ـ بكل تأكيد . ولم لا يا سيدتي؟

ـ طبعا طبعا، ما دمت ستستعين بعلومك السرية من التنويم والتهويم. فانه يبدو لي انك وقد تعلمت كل شيء وفي كل مكان ، قد تعلمت هذه العلوم السرية ، فاصبحت قادرا على قراءة اسرار الناس وهم نيام . وهي ايها الصديق سرقة معنوية اخطر بكثير من سرقات الاموال المادية . فعن طريق ذلك النوم تسرق ارواح الناس حينا ، وتسرق اجساد بعضهـــن حينا اخر .

فادرك الدكتور جيلبير انها تشير الى حادثته القديمة مع اندريه ، حين استولى على روحها وهو غلام ناشيء من اتباع كاليسترو عن طريق التنويم والايماء : فشحب وجهه شحوبا شديدا ، ولاحظت الملكة ذلك فارتجفت فرحا ، فتماسك وقال لها :

ـ سيدتي . كل انسان معرض للوقوع في الخطأ . وكلنا نقترف في حق اخواننا في البشرية اخطاء جسيمة ، فيجب ان يكون التسامح رائدنا في الحكم على الناس ، وان يكون نصيبنا من التسامح اعظم كلما ارتفعت مكانتنا بينهم ، لان ارتفاع المكانة يجعل المرء اقرب الى ايذاء الناس دون ان يشعر لاتساع دائرة نفوذه وسلطانه . اليس الله ارحم الراحمين لانه اقوى الاقوياء واعلى الاعلياء . فكوني رحيمة متسامحة يا مولاتي .

ـ انني ايها السيد اجلس على عرشي وارى واجباتي في ضوء يختلف كثيرا عن وجهة نظرك . فانا فوق هذا العرش لاثيب واعاقب على السواء.

ـ ولكن استميح مولاتي ان تذكر انه لا حق لها في الحملة على التنويم المغناطيسي ، وهي التي اختبرت استاذي كاليسترو حينما كانت ولية للعهد فاجرى بين يديها تجربة في حدائق الثريانو تركت في نفسها اثرا شديدا ، حتى انه اغمي عليها من شدة التأثر .

ـ اجل اذكر هذا ولا انساه ، فقد جعلني ارى في منامي آلة مـوت عجيبة لم اسمع حتى الان بوجود مثلها ، فاقشعر لرؤيتها بدني .

ـ ان المستقبل لا يزال غنيا بالاحتمالات يا مولاتي .

ـ خلاصة ما اريد ان اقوله لك ايها السيد ، انك ما دمت تعتـــرف بالتلمذة على رجال اسرار السوداء ، ينبغي ان تكون على حذر وقد ارتفع بك القدر من غلام بستاني يعمل في الوحل الـــى طبيب خاص يعاشر الملوك . وانك ينبغي قبل ان تفكر في معالجة الملك ان تعالج نفسـك لتغسل

عنها ادران ماضيك واخطاء شبابك .

ـ اطمئني يا مولاتي فقد سلخت اعواما طويلة في تأمل نفسي وامتحان ضميري .

ـ الم يهدك ضميرك الى انه من الخير لك الا تقترب من البلاط ، فليس البلاط هو المكان المناسب لمثلك ؟

ـ بالعكس يا مولاتي لقد هداني ضميري الى انني لست اقل جدارة بالحياة في البلاط من اي انسان اخر ، فكلنا بشر لهم اخطاؤهم . ولم اتعلم هذه الحقيقة من الكتب ، بل من امتحان سرائر الناس .

ـ يبدو لي ايها السيد انك اصبحت كلي العلم معصوما .

ـ لا هذا ولا ذاك يا مولاتي وانما انا رجل له معرفة واسعة بمصائب الناس وشقائهم . فنظرة واحدة الى تلك الخطوط السوداء تحت عينيك ، وتلك الاخاديد المحيطة بفمك ، تكفيني لكي اقرر كم ثورة عنيفة من ثورات القلق والعذاب قامت في نفسك . وفي استطاعتي اذا ركزت نظري عليك ان اقرا افكارك ورغباتك ، وان اجعلك تشعرين بمقدار ما استطيعه وبمبلغ ما يمكن ان تضعي في من ثقة .

وشعرت ماري انطوانيت ببغضها له يتحول الى خوف ، فتراجعت الى الوراء كمن يتحاشى خطرا واهما ، ولاحظ ذلك فاستطرد قائلا :

ـ ولعلك الان يا سيدتي قد بدات تدركين انه من السهولة بمكان ان اقرا مكنونات فكرك ، تلك المكنونات التي تخفينها عن الناس وتخفينها عن نفسك ايضا . وانه في وسعي ان اجعلك تستلقين الان فوق هذا الكرسي بلا ارادة ولا وعي . ولكن يمنعني من ذلك اعتبار واحد هو انني اخلص رعاياك لك واشدهم ولاء وخضوعا ، ولولا ذلك لجعلتك تسقطين صريعة كالمصعوقة تحت سلطان ارادتي . ولكنني رعيتك قبل ان اكون رجل العلم والاسرار . واني لأرتجف لمجرد التفكير في امكان اطلاعي على افكار جلالتك ، وانه لاهون عندي ان اقتل نفسي بيدي من ان اقدم على شيء من ذلك . مع انك يا سيدتي قد تسببت في القائي في غياهب الباستيل، ومع انك لا تأسفين على سقوط الباستيل الا لان الشعب قد فتح ابوابه لي فخرجت واني لأرى الكراهية واضحة في عينيك لرجل لا يكن لك الا كل احترام . اراك تشكين في صدق قولي ، حتى لتراودني نفسي ان اجعلك تكتبين على هذه المائدة التي امامك اخفى اسرارك ، فتكون تحت يدي وثيقة بخط يدك تدمغك وتجعلك تحت رحمتي . ولكن كرم اخلاق الرجل الذي اهنته واحتقرته وآذيته لم يسمح له بشيء من هذا هو عليه هين

غير عسير .

ـ اكنت تفكر في تنويمي وحملي على الكلام وأنا نائمة ؟ انت ؟

ـ ما كنت لأبيح لنفسي هذا بغير شاهد يسجل اقوالك جميعا .

ـ شاهد ؟ ومن تراه يكون ذلك الشريك المتآمر ؟

ـ انه لا يمكن ان يكون شريكا متآمرا . فذلك الشاهد ما كان ليكون سوى جلالة الملك شخصيا .

ـ الملك ! آه يا مسيو جيلبير !

ـ الملك . زوجتك وحاميك الطبيعي ، فانه ولا شك كان سيخبرك بعد يقظتك بمدى ما وصلت اليه قدرتي العلمية بين يدي اكرم الملكات .

ـ بعد ان سمعت منك ما سمعت ، لا بد ان تكون عدوا لدودا وخصما عنيدا ايها السيد .

ـ او صديقا حميما يا سيدتي.

ـ مستحيل . فالصداقة لا يمكن ان توجد مع الخوف والشك .

ـ بل مع الثقة والولاء . فلو كنت اضمر السوء ما صارحتك بأسلحتي ومدى قوتها ووسائل استخدامها . ولكن ثقي انني لا استخدم هـــذه الاسلحة للايذاء بل للدفاع . وثقي انني سأكون أخلص الناس لك ، واصدق مستشاريك . وكل ما أتداول فيه مع الملك ، سأصارحك به وابحثه مع جلالتك بكل اخلاص وصراحة .

ـ آه ايها السيد . انك وقد سيطرت على المرأة بطبك ، تريد الان ان تسيطر على الملكة بآرائك !

ـ كلا يا مولاتي . فلست متآمرا دنيئا كما تظنين . ومرادي خدمـــة الملكية ، وخدمة جلالتك شخصيا ، لانني معجب كل الاعجاب بصفاتـــك العالية وذكائك .. ولهذا اريد ان اخدمك .. بل اني استحلفك اذا كان الاثر الذي تركته في نفس جلالتك اليوم اثرا غير محمود ، ان تصرفيني ، فامضيف ي سكون ، دون ان اخبر الملك برحيلي .. وأذهب بعيدا جدا ، حتى تشعري جلالتك بالراحة والامان .

فنظرت اليه الملكة بدهشة وحيرة ..

وفي هذه اللحظة سمعت مواقع أقدام تقترب من الباب ، فرفعت ماري انطوانيت راسها وانصتت ثم قالت :

ـ الملك . الملك قادم .

ـ اذن اسرعي يا مولاتي . هل ابقى ام اذهب ؟

ـ بل ابق !..

فانحنى جيلبير شاكرا ، ووقف في مكانه جامد الاسارير ، في حين ازدادت خطوات الملك اقترابا ...

في حضرة الملك

ودخل الملك حجرة الملكة بخطوات سريعة شديدة الوقع كما هي عادته في السير . وكانت تبدو عليه علائم الانشغال والتطلع ، بخلاف الملكة التي كانت تبدو باردة كالثلج صارمة لا تتزعزع . وكان يستنشق الهواء العليل في قوة ، كأنه يلتذ بصحته الجيدة مع انه استيقظ مبكرا بعد ان نام في ساعة متاخرة .

وكانت اول كلماته حين دخل :

ـ اين الدكتور ؟ ماذا حدث للدكتور ؟ فاجابته الملكة قائلة:

ـ طاب صباحك يا مولاي . كيف اصبحت ؟ اتشعر بتعب شديد ؟

ـ لقد نمت ست ساعات . وهو قسط واف . واشعر انني على ما يرام وأن ذهني صاف . اما انت فتبدين شاحبة يا سيدتي . وقد قيل لي انك بعثت في طلب الطبيب . ـ هذا هو الدكتور جيلبير .

وعندئذ برز جيلبير من فجوة نافذة كان قد توارى بها حتى تلك اللحظة، فانفرجت أسارير الملك وقال :

ـ لقد نسيت . هل كنت متعبة جدا حتى بعثت في طلب الدكتور ؟

فتدرج وجه الملكة احمرارا ، فقال الملك :

ـ لقد احمر وجهك !

فزاد وجهها احتقانا ، فقال : ـ هو اذن سر اخر .

فقالت الملكة في انفة : ـ اي شر تعني يا مولاي ؟

ـ لم تفهمي مرادي . انما عنيت ان لك اطباءك الخصوصيين المفضلين لديك . فما كنت لترسلي الى الدكتور جيلبير الا اذا كنت قد اردت ..

ـ اردت ماذا ؟

ـ انك دائما ترغبين في اخفاء أمراضك عني . ولكن حذار ! فان الدكتور جيلبير من اصدقائي الحميمين فاذا قلت له اي شيء فانه حري ان يطلعني عليه بحذافيره .

فابتسم الدكتور جيلبير عندئذ وقال : ـ اما هذا يا مولاي فلا !

ـ اذن فالملكة تفسد علي رجالي !

فاطلقت الملكة ماري انطوانيت ضحكة من ذلك النوع الذي لا يدل على السرور والمرح وانما على الرغبة في تبديل الحديث فحسب . وقد ادرك جيلبير ذلك ، اما الملك فلم يدركه واستطرد :

ـ هيا يا دكتور واخبرني ماذا كانت تقول لك الملكة ؟

فكانت الملكة ماري انطوانيت هي التي اجابت قائلة :
ـ لقد كنت اسأله لماذا ارسلت في طلبه في هذه الساعة المبكرة. فمما لا شك فيه ان حضوره الى القصر في هذه الساعة قد أزعجني .
فقال الملك في وجوم :
ـ لقد كنت أنتظر حضور الدكتور لنتحدث معا في السياسة .
ـ آه . شيء عظيم !.
ثم جلست فوق مقعد جلسة من تستعد للاصغاء . اما الملك فقال للدكتور وهو يتجه نحو الباب :
ـ هيا بنا يا دكتور .
فانحنى الدكتور جيلبير انحناءة عميقة للملكة ، وهم ان يتبع الملك ، غير ان الملكة صاحت في دهشة مستنكرة :
ـ الى اين انتما ذاهبان ؟ اتتركاني هكذا ؟
فقال الملك كالمعتذر :
ـ الواقع يا سيدتي اننا سوف لا نتحدث في أمور بهيجة ، فمن الخير ان نجنبك هذا العناء .
ـ وهل تسمي اهتمامي عناء ؟ ارجو ان تبقيا هنا . تلك رغبتي . ولا اعتقد انك ستعصياني يا مسيو جيلبير .
فقال الملك :
ـ ان المسألة بالذات تتعلق بالدكتور جيلبير . فالمفروض انه سيحدثني ويشير علي بكل صراحة وبغير تحرج ، ولكنه في حضورك سوف لا يفعل ذلك بحرية تامة .
ـ هل استطيع ان استنتج من ذلك ان الدكتور جيلبير حين يتحدث بحرية تامة لا بد أن يبدي من الاراء ما يغضبني ؟
ـ هذه مسألة مفهومة بالبداهة يا سيدتي . فان لك كما تعلمين خطة سياسية خاصة ، ليست في جميع الاحوال خطتنا نحن ، ولهذا اقتضت ارادتنا ان نتيح له الحرية التامة .
ـ وبعبارة اخرى ان المسيو جيلبير له خطة سياسية تتعارض مع خطتي على طول الخط .
وعندئذ تدخل جيلبير في الحديث . قال :
ـ لا بد ان يكون الوضع هكذا يا مولاتي ، لان آرائي ونظرياتي غير مجهولة لجلالتك . ولكن لتتأكد مولاتي انني حري ان اقول الصدق بكل حرية وصراحة في محضرها وفي غيابها على السواء .
ـ هذا سلوك محمود على كل حال .

فقال الملك : — ان الصدق كما تعلمين محمود دائما .
— ولاسيما حين يقال بنية طيبة وقصد جميل .
— هو ما تقولين يا سيدتي . ولهذا أستحسن ان تتركي للدكتور جيلبير كامل الحرية في الادلاء بآرائه .
فقال جيلبير مقترحا :
— ما دامت جلالة الملكة تريد ان تعرف الحقائق بصراحة ، وما دامت جلالتها كما اعرفها جيدا ذات عقل راجح وقلب قوي ذكي ، فانها لـــن تخشى الحق ولن تكره مواجهته ، ولهذا افضل الكلام بحضورها .
— بل انني التمس هذا يا صاحب الجلالة .
فعقب جيلبير على التماس الملكة بقوله :
— ولاسيما ان الموضوع يهم جلالة الملكة كثيرا ، لانه يتناول سعـــادة ومجد جلالة الملك .
— ليكن اذن . وان كان الموضوع دقيقا جدا ، بحيث ساشعر بالحرج لوجودك معنا اثناء الحديث .
فاظهرت الملكة ما ينم عن ضيقها وضجرها ، ثم وجهت الكلام الـــى الدكتور جيلبير قائلة : — تكلم يا سيدي . ما هي المسالة ؟
— المسالة بكل صراحة وعلى وجه التحديد انني جئت في هذه الساعة الباكرة في الصباح لاشير على جلالة الملك بالانتقال الى مقر ملكه بباريس .
فلو ان شرارة انقضت على الثمانية الاف رطل من البارود التي كانت في اقبية دار البلدية لما كان لها من الدوي والانفجار المزلزل مثل الذي احدثته هذه الكلمات المعدودات في قلب الملكة ماري انطوانيت ، فقـــد تنمرت وتنكرت وصرخت كالملدوغة :
— الملك ينتقل الى باريس ! الملك !
فلم يسع الملك الا ان يقول : — ارايت ؟ الم اقل لك يا دكتور؟
واستطردت الملكة قائلة :
— الملك ! في وسط المدينة المتمردة ؟ الملك بين هؤلاء الغوغاء حملـــة الفؤوس والمناجل ؟ الملك بين هؤلاء القتلة والسفاكين الذين ذبحوا الحامية السويسرية وقتلوا مسيود ي لوناي ومسيو دي لوم ومسيو دي فليسيل؟ الملك يجتاز ميدان البلدية خائضا في دماء الذين استشهدوا دفاعا عنه وعن شرفه وكرامة عرشه ؟ لا بد انك فقدت عقلك وفقـــدت التميز بين الخبيث والطيب حتى خطر لك مثل هذا الراي الفاسد . نعم ! واكررها مثنى وثلاث ورباع : انت مجنون !

فغض الدكتور جيلبير بصره كمن يستعين بشعور الاحترام لكبح عواطفه ولم يجبها بكلمة واحدة . اما الملك فراح يتململ في مقعده كانه جالس على آلة من آلات التعذيب . واستطردت الملكة :

ـ امن الممكن ان تخطر مثل هذه الفكرة لعقل ذكي ، او لقلب فرنسي صميم ، ماذا ايها السيد ؟ الم تتبين انك انما تخاطب خليفـــة القديس لويس ، لويس التاسع بطل الحروب والايمان والفداء ، وحفيد الملـــك الشمس لويس الرابع عشر ؟

وكانت الملكة تدق البساط بقدميها في اضطراب، وهي تقول في صوت مرتجف كانه بركان يقذف بالحمم :

ـ ولست اعتقد انك ترمي بهذا الاقتراح الى حرمان الملك من حماية حرسه ومعونة جيشه ، وانك تريد ان تستدرجه من قصره وهو بمثابـــة القلعة الحصينة ، كي تعرضه وحيدا اعزل مجردا من الحماية لضربات اعدائه الماقونين وخصومه الموتورين . ولا احسبك فيما اعتقد تريد ان ترى ملكك مقتولا كما قتل بالامس رجاله المخلصون يا مسيو جيلبير !

ـ لو انه خطر لي يا صاحبة الجلالة أدنى شك في انـــك تؤولين مشورتي على محمل الخيانة والغدر ، لما غفرت لنفسي ذلك قط . ولكن شكرا لله يا سيدتي ، فانت لا تظنين بي هذا الظن . فاني انما جئت في هذه الساعة كي أقدم للملك المشورة التي اعتقد انها الصواب ، بل انها اصوب الاراء في هذا الموضوع .

فضمت الملكة قبضة يدها فوق صدرها في عنف ، وهز الملك كتفيه في حركة تدل على الضيق الشديد ونفاد الصبر ثم قال :

ـ ولكن بحق السماء يا سيدتي استمعي الى حججه ، ولدينا متسع من الوقت للرفض واللوم والثورة بعد ان ينتهي من بيانه .

وقال جيلبير بهدوء تام :

ـ ان جلالة الملك على حق يا مولاتي . فجلالتك تجهلين تمام الجهل ما انوي ان القيه على مسامع جلالتيكما . فاولا ، انتما تظنان نفسيكمـا محاطين بجيش قوي مخلص لقضيتكما ومستعد كل الاستعداد للموت في سبيلكما . وهذا خطأ . فنصف الفرق الفرنسية تتآمر مع الثوار لتنفيذ المآرب الثورية .

فصاحت الملكة بحدة : ـ حذار يا سيدي ! فانت تهين الجيش !

ـ بالعكس يا مولاتي ، فانا من اشد انصاره تحمسا ومن اكثر مادحيه اخلاصا ، فمن الممكن جدا ان يحترم الانسان ملكته ، ويخلص الولاء لمليكه،

وأن يكون في الوقت نفسه محبا لوطنه مخلصا للحرية .

فرشقته الملكة بنظرة ملتهبة كأنها وميض البرق وقالت :

ــ ان هذه اللغة ايها السيد ...

ــ لا شك يا مولاتي ان لغتي تضايقك . فاني مقدر ذلك تمام التقدير، لان جلالتك على الارجح تسمعين هذا الكلام لاول مرة .

فغمغم الملك قائلا :

ــ يحسن أن نروض انفسنا على سماع هذة اللغة منذ الان .

فصرخت ماري انطوانيت قائلة :

ــ مستحيل ، مطلقا .

ــ اسمعي . هيا نصغي لما يقول الدكتور ، فانه يخيل الي ان كلامه حافل بالحقائق جدير بالاصغاء .

فجلست الملكة وهي ترتعد غضبا . واستطرد جيلبير :

ــ كنت بصدد ان اقول يا مولاتي انني شاهدت باريس وجست خلالها دارسا متفحصا ، وان جلالتك لم تزوري ولو فرساي مثل هذه الزيارة. فهل تعلمين يا مولاتي ماذا تدبر باريس في الوقت الحاضر ؟

فقال الملك في لهفة شديدة :   ــ كلا . لا نعلم ..

وقالت الملكة في ازدراء :

ــ ألعلهم يفكرون في الاستيلاء على الباستيل مرة اخرى ؟

ــ كلا ولا شك يا مولاتي .. ولكن باريس تعلم ان ثمة قلاع اخرى تقف حائلا بين الشعب وبين مليكه ، ولهذا تفكر باريس في جمع نواب أقسامها الثمانية والاربعين وارسالهم وفدا الى فرساي .

فصاحت الملكة في لهجة تنم عن الفرح الوحشي .

ــ دعهم يأتون ! دعهم يأتون ! وما احسن ما سيستقبلون به هنا .

ــ مهلا يا سيدتي ! فان هؤلاء النواب لن يأتوا وحدهم .

ــ مع من اذن سيأتون ؟

ــ سيأتي معهم حرس وطني قوامه عشرون الفا .

ــ حرس وطني ؟ اي شيء هذا ؟

ــ على رسلك يا مولاتي ولا تتحدثي باستخفاف عن ذلك الحرس فانه سيغدو يوما ما قوة بيدها الحل والعقد .

اما الملك فصاح في تعجب :   ــ عشرون الف رجل ؟!

فقالت له الملكة :

ــ ولو كانوا عشرين الفا ، او ثلاثين ، فما يضيرك ولديك هنا عشرة

الاف يقومون بمائة الف من هؤلاء المتمردين . فليأت العشرون الفا من المتشردين وشذاذ الآفاق فانهم واجدون هنا عقابا يردعهم ويجعلهم أمثولة وعبرة لهؤلاء الثوار الذين لو كنت قد اخذت بنصيحتي لسحقتهم في اسبوع واحد .

فهز جيلبير عندئذ راسه في اسف وقال :

ـ آه يا سيدتي . كم تخدعين نفسك بالاباطيل ! بل كم خدعك الاخرون ! فهل فكرت يا سيدتي في عاقبة هذا الراي الذي تقترحين ؟ انها الحرب الاهلية ، تثيرها الملكة . ولم يحدث هذا الامر من قبل الا مرة واحدة ، فصارت تلك الملكة مكروهة من الشعب الى الابد .

ـ انا يا سيدي التي اثارت الحرب الاهلية ؟ أانا التي اطلقت النار على حصن الباستيل بغير تحرش او اثارة ؟

فتدخل الملك قائلا :

ـ سيدتي ! اصغي لصوت العقل بدلا من الاحتداد الذي لا جدوى منه.

ـ بل قل اصغي للضعف !

فقطب الملك حاجبيه وقال بصرامة وجد :

ـ ارعوي يا انطوانيت ، واصغي لما يقول الدكتور .. فان حضور عشرين الفا الى فرساي ليس مسالة هينة .. تكلم يا دكتور جيلبير .

ـ ارجو يا مولاتي ان تدفني هذه الاحقاد من الجانبين ، وأن توفري على جلالة الملك وعلى جلالتك عناء مشاهدة هذه الحرب الاهلية .. ان الجماهير تزحف الان الى فرساي لانها تريد ملكها ، وفي وسع الملك ان يطفىء احقادها بان يتقدم نحو هذه الجموع بابتسامة محبة ، ويبرهن على انه ليس محتميا بجيشه من شعبه ، بل هو واثق بشعبه مستغن بحبه عن كل جيش . فمثل ذلك العمل السياسي البارع يكسب الملك محبة الجميع . فالاحتكام الى القوة قد ينتهي بتغلب العشرين الفا على الملك وجيشه، في حين ان الملك وحده يستطيع ان يغلب العشرين الفا ويكسبهم، وذلك احسن وأولى ، لانهم يا مولاتي شعبه قبل كل شيء .

فلم يسع الملك ان يكتم اشارة موافقة ، لحظتها الملكة على الفور ، فصرخت في وجه جيلبير :

ـ ايها التعس ! ألست تتبين تاثير وجود الملك في باريس تحت ضغط هذه الظروف ؟ ـ افسحي يا مولاتي .

ـ ان معنى ذهابي الى باريس الان انه يقر ما حدث ، ويبارك سفك دماء السويسريين والسادة المخلصين . ومنذا الذي سيقدم بعد ذلك على

الوقوف في صف الملك او الدفاع عنه وهو يعلم ان دمه سيذهب هدرا وان الملك سيبارك قاتليه . ان ذهاب الملك الى باريس ايها التعس بمثابة نزول عن العرش باختياره .

– كلا يا سيدتي . جلالتك مخطئة . بل ان معنى ذهاب الملك الى باريس الان «لقد كان الشعب معذورا في غضبه ، ولهذا جئت امنحه غفراني ، فانا راس الامة لانني الملك ، وانا بهذا الوصف في مقدمة الثورة الفرنسية الاصلاحية، لان مصلحة الامة غايتي وهدفي ، وقوادكم ضباطي، وحرسكم الوطني جنودي ، ونوابكم رجالي . فانا وانتم شيء واحد لا يتجزأ » .

فقال الملك في لهجة حزينة : – لقد اصاب ..

فصاحت الملكة في حنق وذعر :

– بحق السماء لا تصغ لهذا الرجل ، فهو لك عدو مبين .

– سيدتي . ان جلالة الملك سيقول لك الان رايه بصراحة فيما عرضته عليه .

– الواقع يا سيدي انك اول رجل اقدم حتى هذه اللحظة على مصارحتي بالحقيقة .

فصرخت ماري انطوانيت : – الحقيقة ؟ ما هذا الذي تقول ؟

فقال جيلبير :

– نعم يا مولاتي ، هي الحقيقة ، والحقيقة وحدها هي التي تستطيع ان تنقذ الملكية من الهاوية السحيقة التي توشك ان تتردى فيها .

وانحنى جيلبير بخضوع حتى كاد يلمس ركبتي ماري انطوانيت .

***

ولاول مرة بدا على الملكة التاثير الشديد فهل كان ذلك لما سمعته من الحجج او لما بدا من تواضع الدكتور جيلبير ؟

اما الملك فنهض من مقعده وقد بدت على محياه دلائل الحزم والعزم وراح يفكر في كيفية تنفيذ مشروع الدكتور جيلبير .

بيد ان للعادة حكمها . وقد تعود لويس السادس عشر الا يقدم على شيء جل او هان الا بعد استشارة الملكة . فقال لها :

– سيدتي . هل توافقين على الفكرة ؟

– يبدو لي انه لا بد من هذا . – لست اطلب منك تسليما .

ــ ما الذي تطلبه مني اذن ؟ ــ اطلب منك اقتناعا يقوي اقتناعي .
ــ اتسالني رايي اذن؟.. اذا كان الامر كذلك ، فاني مقتنعة بان الوقت فيما يبدو قد حان كي تغدو الملكية اتعس واهون منصب يشغله انسان في العالم .
ــ انت تبالغين . قد تكون الملكية متعبة ، اما ان تكون مهينة فذلك هو المستحيل .
ــ سيدي ، لقد اورثك اجدادك الملوك تركة محزنة .
ــ اجل تركة يحزنني ان ابتليتك بمشاركتي اياها يا سيدتي .
وعندئذ تدخل جيلبير في الحديث قائلا :
ــ ارجو يا مولاي ان تسمح لي بالكلام . فلست ارى ثمة داعيا على الاطلاق كي تنظر جلالتكم الى الامور بهذا المنظار القاتم الذي يملأ القلب رعبا ، فلئن انتهى عهد الملكية المستبدة المطلقة ، فقد بدا عهد الامبراطورية الشورية الدستورية .
ــ وهل تظنني يا سيدي الرجل الكفيل باقامته مثل تلك الامبراطورية في فرنسا ؟
فقالت الملكة وقد شجعتها كلمات جيلبير : ــ ولم لا يا مولاي ؟
ــ سيدتي . اني رجل سليم العقل احب ان ارى المسائل بوضوح . واني موقن انه متى انزلت من علياء الملكية المطلقة ، ونزعت عني هالتها ، سيراني الناس بشرا عاديا ، وستفارقني القوة التي كانت تكفل لي الثقة بنفسي فكانت مصدر قدرتي على حكم فرنسا . ثم ماذا يريد الفرنسيون الان ؟ انهم يريدون سيدا . وانا اشعر انني لست مستطيعا الا ان اكون ابا . وماذا يريد الثوار ؟ يريدون سيفا ولهبا . وانا اشعر انه ليست لدي القوة الكافية كي اضرب واحسم .
فصاحت الملكة :
ــ انت تشعر انه ليست لديك القوة كي تضرب وتحسم ، كي تضرب شعبا يبدد تراث ابنائك ، وينتزع عن جباهنا وعن جبينك انت درر تاجك.
ــ عزيزتي انطوانيت . لو انك كنت زوجة مواطن عادي ، لما رأيت هذا الراي . ــ ولكني لست زوجة مواطن عادي .
ــ ولهذا اعذرك في تعصبك ضد الثوار . ولكن ليس معنى هذا انني اوافقك على وجهة نظرك . كلا يا سيدتي . يجب ان تذعني للامر الواقع، فقد ارتقينا عرش فرنسا في عهد قلقلة عاصف ، فكان من الواقع أن ندفع امامنا عوامل الثورة ونوجهها ونستخدمها، لو ان لدينا القوة الكافية

لذلك . ولكن ليست لدينا والأسفاه هذه القوة .

ــ وهذا اسوأ . لان الثورة ستنصب على عاتق اولادنا من بعدنا .

ــ ربما . ولكن علينا الا نزيدها لهيبا وضراما .

ــ ولكن لا تنس انه في وسعنا ان نعوقها .

فصاح جيلبير كمن يتنبأ :

ــ حذار يا سيدتي ، فانك اذا عوقتها او وقفت في سبيلها سحقتك.

ــ ايها السيد . اني ارى انك تذهب بصراحتك في المشورة بعيدا .

ــ سألزم جانب الصمت يا سيدتي . فقال الملك :

ــ بحق السماء اتركيه يتكلم . واولى بك ان تشكريه لانه لا يخفي عنا الحقيقة .

فسكتت ماري انطوانيت لحظة ، ثم تنهدت وقالت :

ــ سالخص الموقف ، او بعبارة ادق سأعيد ما قلت . فاني ارى ذهاب الملك باختياره الى باريس بمثابة اقرار لكل ما حدث ما فيها .

فقال الملك ببساطة :

ــ نعم . أدرك هذا الادراك .

ــ وفي ذلك ما فيه من التحقير والتخلي عن جيشك ، ذلك الجيش الذي يستعد الان للدفاع عنك .

فقال الدكتور جيلبير :

ــ انها خطوة نحو حقن الدم الفرنسي .

ــ لعلها تفسر بانه لا معنى بعد الان للاقدام على اعمال العنف .

فتهلل جيلبير وقال :

ــ اعتقد يا سيدتي انك قد تفضلت فاقررت بانني قد تمكنت من اقناعك.

ــ الواقع انني اشعر كان جانبا من النقاب قد انكشف امام عيني . ولكني اصدقك القول انني كنت افضل ان اظل عمياء ، لا ارى الا تلك الصور الفخمة التي عودتني اياها تربيتي وتقاليد بيتي وتاريخه . انني افضل الف مرة ان ارى نفسي ملكة متعالية على ان اشعر انني ام لشعب يكرهني ويهينني .

فصاح الملك مذعورا ولاسيما ان وجهها كان شديد الشحوب :

ــ انطوانيت ! انطوانيت .

واشار بعينيه لينبه ماري انطوانيت الى وجود الدكتور ، فقالت :

ــ كلا كلا سأتكلم . فهذا السيد يعرف ما كنت سأقول . بل انه يعرف جميع افكاري فلماذا اكتم ما بنفسي . واني اشعر بذعر لانك

ستتركني وتذهب ، وأكاد اراك كذلك الامير الذي تروي قصته الاساطير الالمانية ، ستذهب الى غير عودة .

ـ ولماذا يا سيدتي ؟ اني ذاهب بكل بساطة الى باريس .

ـ اتظنني مخبولة ؟ انت ذاهب الى باريس هذا صحيح . ولكن من يدريك ان باريس ليست هي الهاوية ؟ من يدريك انك سوف لا تتعرض وانت في وسط الزحام بطعنة خنجر او طلقة غادرة ؟

ـ لا داعي للخوف والقلق من هذه الجهة . فان شعبي يحبني .

ـ لا تقل هذا يا مولاي ، والا اثرت شفقتي عليك . فهل من يحبونك يقتلون رجالك المخلصين ؟ لقد كان حاكم الباستيل يمثلك فقتلوه . ومن قتلوا دي لوناي احرى بهم ان يقتلوك لو انك كنت في مكانه ، بل ان قتلك اسهل من قتل دي لوناي بكثير ، لانهم يعرفونك ويعرفون انك لن تدافع عن نفسك ، بل ستعري صدرك لهم .

ـ وماذا في ذلك ؟ ـ واطفالي .

وعندئذ رأى جيلبير انه يحسن به أن يتدخل في الحديث ، فقال :

ـ ثقي يا مولاتي ان الملك سيكون موضع كل رعاية واحترام فـــي باريس . وأن وجوده بين الجماهير سيسبب نشوة حماسية ، بحيث ان اعظم ما اخافه عليه ليس هو القتل ، بل كثرة من سيلقون بأنفسهم تحت حوافر جياد مركبته . ان ذلك الزحف السلمي الى باريس سيكون نصرا عزيزا للملك يا مولاتي .

ـ وهل تصدق هذا الكلام يا مولاي ؟

ـ اني أوافق الدكتور على وجهة نظره .

ـ واظنك متلهفا يا مولاي على ذلك النصر العزيز .

ـ احسب ان المبادرة به خير من الانتظار حتى يطلب مني الحضور .

ـ ومع هذا فاراني مضطرة الى طلب تاجيل رحيلك الى الغد واقسم لك انني لن أعارض بعد ذلك في رحيلك الى باريس .

ـ يوم ضائع . اربع وعشرون ساعة كاملة تذهب هباء .

ـ لا بد من هذا يا مولاي . ـ السبب . السبب ؟

ـ لا سبب يا مولاي سوى دموعي وتوسلاتي .

ـ ولكني أخشى في سحابة ذلك اليوم ان ترسل الى الجمعية الوطنية مطالبة بانتقالي الى باريس ، فيبدو انتقالي بعد ذلك خضوعا لا عملا مـن تلقاء نفسي .

ـ وذلك احسن من كل وجه . لانك حينئذ ستضطر للرفض ، والى

اثبات نفوذك الملكي وهيبتك وسلطانك ، فاذا كان لا بد من حرب فلنحارب هنا ، ولنمت ملوكا اعزة كراما ، مؤمنين بالله والقين بالذي بيده مقاديرنا ومنه تسلمنا شعائر الملك ومسئولياته .

وكانت الملكة ترتجف وهي تتكلم كمن بها حمى ، فادرك الملك انه لا جدوى من المقاومة ولا مفر من النزول عند رغبتها فقال :

ـ لك ما تريدين اذن . ولكن خبريني بالله ما علة هذه المهلة ؟

ـ ثق بي ولا تسالني .

ـ أهناك مؤامرة او مدد عسكري منتظر او شيء من هذا القبيل ؟

ـ لا شيء من هذا . ـ اذن في المسالة سر ؟

ـ أجل . سر امراة قلقة لا اكثر .

ـ بل قولي نزوة . ـ هي نزوة ان شئت .

ـ ونزوات المراة التي تحب هي القانون الاعلى . الى غد اذن . وهل تستبقين الدكتور ؟ ـ كلا كلا .

ـ سآخذه معي اذن .

وانحنى جيلبير للملكة فردت تحيته برقة ثم تبع الملك نحو الباب .

وقال له الملك وهما في الدهليز :

ـ يبدو لي يا مسيو جيلبير ان علاقتك بالملكة صارت طيبة .

ـ الواقع يا مولاي ان هذه نعمة ادين بها لجلالتكم مدى الحياة .

***

وارسلت الملكة في طلب مدام دي كامبان . واغلقت عليهما الباب في خلوة فترة من الزمن فلم يعلم احد ماذا دار بينهما .

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي كانت الملكة اول من خف الى مخدع الملك وهو يرتدي ثيابه ، فقدمت اليه شيئا هو علة طلبها مهلة اليوم . وكان هذا الشيء صدارا من الفولاذ الدقيق ، هو اعجوبة من أعاجيب الصناعة، يلبسه تحت ثيابه ليحميه من الاغتيال .

رحلة باريس

وراح الملك يتأمل تلك الآية الفنية ، فلاحظ في موضع منها شيئا من العطب الخفيف فقال للملكة : ـ ما هذا الذي ارى ؟

ـ هذا يا مولاي أثر رصاصة مسدس .
ـ انت اطلقت مسدسا محشوا بالرصاص بيديك لتجربي الدرع ؟
ـ نعم وهذه هي الرصاصة يا مولاي وقد صارت صحيفة مبططة ، فاحتفظ بها تذكارا وثق ان حياتك في مأمن .
ـ انت ملاكي الحارس .
وبيدين ثابتتين خلع الملك الصدار من حيث وضعته الملكة حول عنقه ثم وضعه فوق المائدة الصغيرة وهو يقول :
ـ تالله كيف أعبر لك عن شكري وامتناني ؟
ـ ماذا انت صانع ؟ ـ لا . وشكرا .
ـ اترفض ؟ ـ نعم أرفض .
ـ مولاي انها حياتك الغالية . أترفض معونة يسديها لك الله ؟
ـ كفى كفى ! ـ ولكنهم سيقتلونك .
ـ يا عزيزتي ماري انطوانيت . ان الناس في هذا القرن الثامن عشر اذا كانوا من اهل النبالة والنسب لا يرتدون الا أثوابا من القماش اذا خرجوا للقتال يقابلون بها رصاص البنادق . واذ تبارزوا لم يجعلوا دون صدورهم الا القمصان الرقاق هي كل وقائهم من أسنة السيوف . فكيف بي وأنا رأس النبلاء في مملكتي أخرج لا الى ميدان حرب ولكن للقاء رعاياي ومن دون صدري دروع الحديد ؟ شكرا لك ايتها الزوجة الوفية والملكة المخلصة الف شكر .
ثم اتم الملك زينته وكأنه لا يدرك مقدار ما أقدم عليه من بطولة وشجاعة ثم غادر الجناح الخاص فألفى نفسه محاطا بجميع رجال حاشيته الذين ندبوا لمرافقته في رحلة باريس ، وعلى رأسهم السادة دي بوفو ودي فيليروي ودتيان . اما جيلبير فكان واقفا في وسط الجمع .
وقال الملك اخيرا ليقطع كل شك :
ـ سنسير ايها السادة بعد الافطار .
ثم لمح جيلبير فقال له :
ـ انت هنا يا دكتور ؟ ستكون في صحبتي .
ـ رهن اشارتك يا مولاي .
ثم توجه الملك الى مكتبه الخاص حيث شغل بالاعمال ساعتين وتوجه بعد ذلك فحضر القداس الباكر في كنيسة القصر على رأس حاشيته كلها ، وفي نحو الساعة التاسعة جلس الى مائدة الافطار .
وتمت «عملية» الافطار بالمراسم والطقوس الملكية المعتادة . فيما عدا

ان الملكة كانت بعد حضور الصلاة محمرة العينين فاصرت على مجالسة الملك وهو يفطر ولكنها لم تشترك في الاكل . وكان الى جوار الملكة طفلاها وقد بدا عليهما اضطراب شديد بسبب ما لا شك ان الملكة قالته لهما ، فكانا يمسحان دمعهما خلسة بين الحين والحين ، وكان لذلك اثره القوي في الحاضرين فمنهم من رثى لهم مشفقا، ومنهم من اخذته حمية الغضب، ولكن الجميع شعروا بالحزن بغير استثناء .

اما الملك فاستمر في الاكل برباطة جاش وتجلد كانه لا يلاحظ شيئا. وكان يتحدث بين الحين والحين الى جيلبير دون أن يرفع عينيه عن طبقه، وتحدث مرارا الى الملكة بحنان ورقة وثبات .

وقبيل انتهاء الافطار دخل احد الضباط فاعلن الى جلالته ان حفنة من الناس قادمين من باريس سيرا على الاقدام قد ظهرت طلائعهم عند نهاية الطريق الكبير المؤدي الى ميدان السلاح .

فلما سمع الضباط الواقفون ذلك انطلقوا خارجين من الحجرة . اما الملك فرفع رأسه ونظر الى جيلبير ، فلما رآه يبتسم استأنف طعامه صامتا . وأما الملكة فاكفهر لونها وهمست الى مسيو دي بوفو راجية اياه ان يستطلع الامر ، فاسرع الرجل خارجا ، ثم اتجهت الملكة الى النافذة فاطلت منها .

وبعد خمس دقائق عاد المسيو دي بوفو فقال :

– مولاي . انهم من الحرس الوطني . وقد حضروا من باريس عندما سمعوا فيها الاشاعة الرائجة امس ان جلالتكم تزمعون زيارة اهل عاصمتكم فاجتمع منهم نحو عشرة الاف بنية الحضور الى هنا كي يقابلونكم في الطريق حرس شرف . فلما لم يصادفوا جلالتكم في الطريق اتموا سيرهم الى فرساي راجلين .

فسأله الملك : – وما قصدهم من ذلك ؟

– خير مقصد يا مولاي . انه التاهيل والترحيب والتكريم .

فصاحت الملكة بعصبية :

– اغلقوا الابواب . اغلقوا الابواب . . فصاح الملك :

– اياكم ان تفعلوا . ويكفي اقفال باب بناء القصر . اما ابواب الحدائق الخارجية فاتركوها مفتوحة على مصراعيها . ومر يا مسيو دي بوفو ان تقدم المرطبات والفاكهة لهؤلاء الكرام الافاضل .

فخرج مسيو دي بوفو لتنفيذ الاوامر ، ثم عاد بعد قليل فقال :

– ان الباريسيين يا مولاي مشتبكون في مناقشة حامية مع رجال

حرسك الملكي .   ـ مناقشة ؟ ماذا تعني .

ـ انها مناقشة موضوعها الخلاف على آداب الضيافة والولاء . فانهم وقد علموا ان جلالة الملك سيرحل بعد ساعتين قد صمموا على انتظاره للسير وراء عربة جلالته .   فصاحت الملكة :

ـ ولكن هؤلاء السادة يسيرون على اقدامهم وجلالة الملك مسافر في عربة تجرها الجياد السريعة ، وجلالة الملك كما تعلم يسافر دائما بسرعة كبيرة . كبيرة جدا .

وكانت لهجتها وهي تقول هذه الكلمات الاخيرة تعني انها ترغب في ان يكون سير عربة الملك سريعا جدا حتى يبعد تمام البعد عن الحرس الوطني الراجل ، ولكن الملك اشار بيده منهيا الحديث ثم قال :

ـ ستسير عربتي بخطوة المشي البطيء .

فتنفست الملكة عن غيظ مكتوم ، واستطرد الملك :

ـ غير جميل ان احمل هؤلاء الافاضل على الجري وقد اتوا من بعيد لتكريمي وتكوين حرس شرف لي . فيجب ان تسير مركبتي بخطوة المشي البطيء حتى يتمكن كل واحد منهم من مرافقتي .

فارتفعت من بين الحاضرين اصوات الاعجاب بقرار الملك ، ما عدا البطانة المحيطة بالملكة طبعا فقد ظهر عليها الوجوم .

وفي هذه اللحظة فتح جيلبير النافذة الكبيرة لتجديد الهواء كما هو حقه بحكم وظيفته ، ثم قال :

ـ ان الحرس الوطني يا مولاي وقوف تحت حرارة الشمس .

فقالت الملكة في تهكم لاذع :

ـ لقد سقيناهم المرطبات ، ولم يبق الا ان يدعوهم جلالة الملك لمشاركتهم الافطار على مائدته الملكية .

اما الملك فقال ببساطة :

ـ يجب ان يدخلوا الى مكان ظليل ، في الدهاليز مثلا .

فصرخت الملكة ثائرة :

ـ ما هذا ؟ عشرة الاف رجل في الدهاليز ؟ كأني بك تدخلهم الى مخادع نومنا يا مولاي .

فقال جيلبير بصوت عذب هادىء :

ـ ان معهم عددا كبيرا من الاطفال يا مولاتي . فكثير من اعضاء الحرس الوطني قد البسوا اولادهم ثياب الحرس الوطني واحضروهم معهم باعتبار انا ليوم من ايام الاعياد الكبرى التي يفرح بها الصغار قبل الكبار ، ولان

الجيل الناشىء في فرنسا شديد التعلق بهذا الجيش الوطني .

ففتحت الملكة فمها ولكنها لم تستطع ان تتكلم . اما الملك فقال :

ــ ان من يحضرون معهم اطفالهم لا يضمرون السوء لــــرب أسرة ، فادخلوهم القصر ليشعروا بضيافة تلك الاسرة .

وبعد لحظة كانت الهتافات المدوية بحياة الملك تملأ القصر شكرا علــى لفتته الكريمة . ثم دخل دي بوفو فقال :

ــ لقد حسم الخلاف يا مولاي بين الحرس الوطني والحرس الملكي . فجلالتكم ستختارون الترتيب الذي تريدون .

ــ ابلغ الحرس الوطني ان لهم الحرية في اختيار الموضع الذي يريدون في الموكب .

وفي هذه اللحظة دقت ساعة القصر العاشرةفنهض الملك متعجلا السفر حتى لا ينفد صبر رجال الحرس الوطني . وعانقته الملكة في لهفة شديدة، ثم التفتت الى رجال حاشيته المرافقين له وقالت :

ــ ايها السادة . اني اضع ثقتي واملي فيكم .

فوضعوا جميعا ايديهم على قلوبهم ومقابض سيوفهم فابتسمت لهـــم شاكرة ثم التفتت الى الدكتور جيلبير قائلة :

ــ سيدي . لقد كنت صاحب اقتراح سفر الملك الى باريس معارضا بذلك رأيي . فأرجو ان تتدبر المسئولية الجسيمة التي احتملتها امــــام زوجته وبنيه ، وأن ترد الي الملك سالما .

ــ سأفعل يا مولاتي . ولتكن رأسي رهينة سلامته بل ثقي انه سيواجه نصرا ومجدا ، لا خطرا وحقدا ..!!

ــ اريد اخبارهْ ساعة بساعة . ــ انا الضمين لك بهذا .

ثم بدأ سير الموكب ، ووجد جيلبير نفسه منفردا في عربة الامير دي بوفو ، لان الامير فضل ان يمتطي صهوة جواده ليسير محاذيا عربة الملك وسيفه في يده . وضحك جيلبير من نفســه وهو يرى نفسه راكبا عربــــة الامير وعليها شعار امارته . وسمع تعليقات اهالي باريس ورجال الحرس الوطني من حوله وقد عرفوا شعار العربة فحسبوا انه الامير . وفجـــأة سمع صوتا جعله يجفل . صوتا يعرفه جيدا ويعرف لهجته الريفية :

ــ قسما بقرون الشيطان ! ليس هذا اميرا ولا شبه امير . وي . ان هذا الا المسيو جيلبير .

وهجم العم بيو على العربة صائحا :

ــ ماذا تفعل هنا في عربة امير بحق الشيطان . تعال يا بيتو أسرع

وانظر الى المسيو جيلبير في عربة امير .

وترجل جيلبير من العربة ومشى مع ذويه واشباهه على قدميه في الموكب الحافل . وبعد بضع دقائق اقبل احد الياوران يبحث عنه لان الملك ارسل في طلبه .

***

فتقدم جيلبير يفسح له الياور الطريق بين الجموع المختلطة من الرجال والنساء والاطفال ، وهو يسير معتمدا على ذراع بيو لان بيو ابدى رغبة شديدة في رؤية الملك ، وكان بيتو يسير من خلفهما متمنطقا بسيف طويل يجره من ورائه . فلما ابصر الملك الدكتور قال له متهللا :

ـ اي جو بديع . واي شعب رائع .

والحق ان الحماسة كانت شديدة جدا حتى لقد دمعت عينا الملك تاثرا بها ، ولاحظ جيلبير ذلك فاجاب الملك قائلا :

ـ اليس هذا ما وعدت مولاي به .

ـ وقد حققت وعدك اتم تحقيق . ولكن يخيل الي اننا نتقدم بسرعة شديدة قد تجهد السائرين على اقدامهم .

ـ أؤكد لك يا مولاي انه لا يمكن السير بابطأ من هذا .

وكان بيو يكاد ياكل الملك وكلماته بعينيه واذنيه ، وصاح فجأة بصوت عال سمعه الجميع :

ـ لعمري وقد سمعت الملك ورايته ، انه لرجل شريف .

وقالها بحماسة وسذاجة ، جعلت جميع الضباط ينفجرون ضاحكين. اما الملك فابتسم وهز رأسه مرارا وهو يقول :

ـ هذا والله اطراء يعجبني .

وكان صوت الملك عاليا بحيث يسمعه بيو ، فاجاب :

ـ وحق لك يا مولاي ان تغتبط ، فتلك صفة لا اضفيها على كل انسان . ـ وهذا ما يزيد اغتباطي بها .

ففاضت الحماسة على قلب بيو ، فراح يصيح في شبه جذبة صوفية:

ـ عاش الملك ! عاش الملك ! عاش والد الشعب ! عاش ابو الامة !

وكانت الساعة قد قاربت الثانية ، واصوات الهتافات المتباينة تصم الاذان ، حتى لم يعد في استطاعة قائد الحرس الوطني ان يسمع اوامره الى تلك القوات .

وكان الملك يرتدي الشارة البيضاء فوق قبعته وهي شارة الملكية ، اما بيو وسائر الباريسيين فكانوا يلبسون الشارة المثلثة الالـــوان . فلفتت ظاهرة الاختلاف نظر بيو فسأل جيلبير :

ـ يا مسيو جيلبير . لماذا لا يلبس الملك الشارة الوطنية المثلثـــة الالوان مثلنا ؟

ـ لانه يا عزيزي بيو اما ان الملك يجهل ان هناك شارة جديدة ، وإما لانه يرى ان الشارة التي يلبسها هي التي ينبغي ان تكون شارة الامة . ثم ان شارة الملك بيضاء كما ان علم فرنسا ابيض . فلا لوم على جلالته في هذا الشأن .

ـ ولكن الشارة الجديدة هي شارة البعث ، الذي بدأ بالاستيلاء على الباستيل فكان ذلك بداية حقبة جديدة .

ـ انت محق في هذا يا بيو .

ـ ولهذا يجب ان يرتدي الملك الشارة الجديدة .

فلكز جيلبير بيو في خاصرته بكوعه ، لانه لاحظ ان الملك يصغي لهذه المحاورة ، وهمس في اذنه محذرا مؤنبا :

ـ هل جننت يا بيو ؟ الا تدري ممن اخذ الشعب الباستيل ؟

ـ من الملكية المستبدة فيما اعتقد .

ـ اذن كيف تريد الملك ان يرتدي شعار من استولوا على الباستيل ؟ اتريده ان يكون منافقا ايها المجنون ، وهو الشهم الصادق المخلص ؟

ـ ولكن الملك ليس مستبدا ، ونحن استولينا على الباستيل لانه رمز الاستبداد .

فهز جيلبير كتفيه كاليائس من تفهيم هذا الرجل واقناعه .

***

وفي هذه اللحظة توقف الموكب قليلا ، فقد وصل الى الشانزليزيه . وتقدم اثنان من نواب باريس يحملان صينية من الفضة عليها مفاتيـــح المدينة ليقدماها للملك عربون محبة باريس وولائها لملكها المعبـــود الطيب القلب . وكان أهم النائبين هو بايي الخطيب المفوه والعالم الكبير . وقد خاطب الملك قائلا :

ـ مولاي . اني اقدم اليك مفاتيح مدينة باريس . وهي عين المفاتيح التي قدمتها باريس لجدك هنري الرابع حين استرد عاصمته .. فلئن كان

الملك في تلك المرة قد استرد شعبه ورعاياه ... فالشعب في هذه المرة هو الذي استرد مليكه !

وقوبلت تلك الكلمة البليغة الموجزة بهتاف رائع ، لانها كانت كلمة بارعة ، وصادقة ، وملهمة للشعور القوي ، ومعبرة عن تيار التاريخ .

وشكره الملك في حياء ، ثم امر باستئناف الموكب .

وعند ميدان الملك لويس الخامس عشر ، سمعت عن قرب طلقات الرصاص ، وانعقد الدخان الابيض ، وسقطت امراة صريعة الى جوار جيلبير ، الذي كان يسير بجوار العربة الملكية .

وكتم جيلبير الحقيقة ، وكان الملك قد سمع ، ولكنه لم ير ما حدث ، فقال : — احسبهم يطلقون طلقات الترحيب والتكريم .

فقال له جيلبير بتجلد :

— اجل يا مولاي ..

ولكنه كان يعجب من الذي اطلق هذه الطلقات التي كادت تصيب الملك .. وتغلب على الموقف بأن سد بجسده نافذة العربة وهو يهتف للجموع : — يحيا لويس والد الشعب ! يحيا ابو الفرنسيين !

وكانت عظمة الموكب وعظمة دلالة حضور الملك الى باريس في ذلك اليوم بحيث نسيت تلك الحادثة بسرعة كما تتلاشى القطرة الصغيرة من الحبر في المحيط المتلاطم الامواج .

واخيرا وصل الملك تجاه البلدية ، بعد ان حيته عند القنطرة الجديدة طلقات المدفعية ، ولكنها اليوم غيرها امس ، فطلقات اليوم طلقات بيضاء ، غير محشوة بالقنابل .

وفوق واجهة دار البلدية وضعت لافتة كبيرة بحروف ضخمة :

«الى لويس السادس عشر ، ابي الفرنسيين ، وملك الشعب الحر» .

وقد لفتت هذه العبارة نظر بيو ، ولما كان يجهل القراءة طلب الى بيتو ان يقراها له ثم طلب اليه اعادة قراءتها ، ثم استفهما :

— هل كتبت البلدية ان الملك ملك شعب حر ؟

— اجل ايها العم بيو .

— اذن ما دامت الامة حرة ، فمن حقها ان تقدم شعارها المثلث الالوان الى ملكها !

وبوثبة واحدة اندفع بيو حتى صار امام الملك الذي كان في تلك اللحظة يترجل من عربته عند سلم دار البلدية ، ثم قال له بجسارة :

— مولاي . لقد رايت فوق القنطرة الجديدة نقشا يمثل جدك هنري

الرابع وقد ارتدى الشارة . واذا كان جدك هنري الرابع يا مولاي يحمل الشارة الوطنية ، فالحفيد ايضا بوسعه ان يحملها كذلك .

فقال لويس السادس عشر في ارتباك شديد . -

ـ بلا شك ، ولو ان عندي واحدة . .

فقاطعه بيو قائلا بصوت عال جدا ليسمعه الجميع وهو واقف فوق السلم ، وقد رفع يده الى اعلى ليراها الجمع الحاشد المتحمس :

ـ اذن باسم الشعب اقدم هذه الشارة الى جلالتكم !

وحاول بايي ان يتدخل ، فقد كان الملك شاحب الوجه ، فقال :

ـ مولاي . انها شعار جميع الفرنسيين المميز .

فمد الملك يده وتناول الشارة من يد بيو قائلا : ما دام الامر كذلك ، فاني اقبلها .

ونحى الملك شارته البيضاء ، تلك التي كان يرتديها جده هنري الرابع ، وثبت الشارة المثلثة الالوان مكانها في قبعته ، فتعالت الهتافات المدوية من جميع جوانب الميدان تحية لذلك النصر الجديد الذي أحرزه الشعب . وصاح بيو وهو يشير بيده الى الناس كي يصفقوا :

ـ عاش الملك .

وسرعان ما تكون قوس مزدوج من الفولاذ ، رسمته السيوف المتشابكة من حراس الملك من باب العربة الى باب البلدية ، فسار الملك تحت ذلك القوس الى ان اختفى عن انظار الجماهير داخل الفجوة المظلمة ، بين هتاف الشعب الذي كاد يجن جنونه حماسة وفرحا .

عودة الملك من باريس

كان شعور جيلبير حين قبل الملك ان يستبدل شعار الثورة بشعاره الملكي ان الملك قد اخطأ ، وانه كان ينبغي ان يقاوم ذلك الاذعان الصريح . ولكن سبق السيف العزل . واشفق جيلبير مما ستشعر به الملكة حين تعلم ذلك الخبر بعد عودة الملك ، وصار يعمل لذلك الف حساب وحساب .

وكان الملك قد وصل الى باريس متأخرا لبطء مسير الموكب . فكان طبيعيا ان يتأخر به الوقت عند العودة .

وحل المساء ولم يكن الملك قد عاد ، وحلت مع المساء المخاوف والوساوس . وعلى حين غرة سمعت امام القصر صيحات ، فهبت الملكة

واقفة ، وفتحت النافذة بيدها لتستطلع الخبر، واذا ببعض الخدم يدخلون الحجرة في هذه اللحظة وقد استطارهم الفرح صائحين :

ـ رسول يا مولاتي من باريس رسول !

ـ وان هي الا ثلاث دقائق حتى دخل ضابط من حرس الفرسان موفدا من الكونت دي شارني . وصاحت به الملكة : ـ والملك ؟

ـ ان جلالته سيكون هنا بعد ربع ساعة .

وكان المسكين يتكلم بصعوبة لانه حضر باقصى سرعة استطاعها جواده، واستطردت الملكة تساله غير مبالية بانفاسه اللاهثة :

ـ سليما معافى ؟ ـ سليما معافى وباسما ايضا يا مولاتي .

ـ لقد رايته اذن ؟

ـ كلا يا مولاتي ، ولكن الكونت دي شارني قال لي ذلك حين بعثني .

ـ اشكرك ايها السيد . ويحسن ان تستريح الان .

فانحنى الضابط ثم انسحب .

اما الملكة ماري انطوانيت فاخذت طفليها في يديها واتجهت بهما الى مدخل القصر الكبير ، حيث كان قد تجمع هناك من قبل جميع رجال الحاشية ، وجميع خدم القصر ايضا ولم تعر الملكة الا اذنا شاردة للتحايا والمجاملات التي كان يصبها رجال الحاشية في سمعها على مالوف العادة، فلم يكن في قلبها متسع الا لشعور الشكر والامتنان نحو العناية الالهية لانها حفظت لها زوجها وملكها ووالد طفليها . انها لا تحبه حب النساء للرجال . ولكن في اللحظات الحاسمة ترفع العزة بنات الملوك وزوجاتهم مكانا يسمو بهن فوق نزوات الهوى ولواعج العواطف وعواصف القلوب . وظل ذلك الشعور يتزايد كلما اقترب موكب الملك العائد من عاصمته ، وهي تسمع صهيل الجياد على بعد ، وقد مادت الارض تحت حوافرها في سكون الليل . ثم فتحت الابواب على مصراعيها، واندفع الحراس لاستقبال مليكهم بالهتاف المدوي ، واخيرا درجت العربة فوق ارض المدخل الكبير. فلم تملك الملكة تحت تاثير تلك اللحظة وما تجمع في نهارها ذاك من قلق وحيرة وتوجس ، ان اندفعت هابطة السلم اندفاعا .

اما الملك فقد هبط من العربة بمجرد وقوفها وراح يصعد السلم باسرع ما اسعفته به بنيته المكتنزة ، ومن حوله ضباطه ، وقد اهتزت مشاعرهم جميعا باحداث ذلك اليوم .

واما الحراس في الفناء فقد راحوا يتعاونون مع السياس والحوذية في انتزاع الشارات المثلثة الالوان التي دفع الحماس اهل باريس الى تزيين

جدران العربة الملكية وسروج الخيل بها .

والتقى الملك بالملكة فوق درجة رخامية عريضة في منتصف السلم ، وراحت الملكة تضم الملك الى صدرها مرارا عديدة وهي تطلق صيحات الفرح والحب ، ثم انشأت تبكي كانها لقيته على يأس من الميعاد . ثم قدمت الى لويس السادس عشر طفليها فقبلهما .

ولاحظ ولي العهد الصغير بما فطر عليه الاطفال من دقة الملاحظة ان والده الملك قد وضع في قبعته شارة جديدة لم يرها من قبل ، وقد انعكست على لونها الاحمر الصارخ انوار المشاعل فصاح بسذاجة :

ــ ما هذا الذي فوق شارتك يا والدي ؟ أدماء هي ؟

فاطلقت الملكة صرخة ، وحدقت في الشارة . فطاطا الملك راسه متظاهرا برغبة في معاودة تقبيل ابنته الصغيرة ، ولكنه في الواقع كان يخفي خجله من زوجته ورجال حاشيته .

وبتقزز عميق انتزعت ماري انطوانيت الشارة من قبعة زوجها الملك ، دون ان تقدر هذه المراة الغاضبة النبيلة انها بهذه الحركة قد طعنت في السويداء من قلبها امة قد تستطيع في يوم من الايام ان تنتقم لنفسها شر انتقام . وصاحت بالملك :

ــ القها عنك يا مولاي . القها عنك !

ولم تنتظر حتى يفعل ، بل القت بالشارة الى أسفل السلم ، فاسرعت أقدام رجال الحاشية جميعا بوطئها.

وشعرت ماري انطوانيت وهي تتجه بعد ذلك مع زوجها الى الجناح الخاص لتناول العشاء ان حماستها الزوجية قد انطفأت انطفاء تاما ، ذلك ان تلك المشاعر كانت تستمد جذوتها لديها من الانفة والعزة بالملك ، وهي القيم التي ولدت فيها سليلة امبراطور النمسا ، ونشأت عليها في بيت ذويها ، ثم في بيت آل بوربون الملكي في فرنسا .

تحول ...

كان شعور بيو الى ذلك الوقت هو شعور المنتشي بخمرة النصر الذي هبط عليه تباعا فجأة من وراء الآمال . أفليس قد جاء من بلده فاستولى على الباستيل من غده ، ثم البس الملك بيده شارة الثورة ؟

بيد ان الاحداث في الاسابيع التالية تكشفت عن تحول شديد في تيار

الثورة . فلم تكن الدماء التي سفكت يوم سقوط الباستيل غيلة وغدرا ونكثا للعهود بعد ان استسلمت الحامية استسلام الشرف ، لم تكن تلك الدماء وصمة عابرة في جبين الثورة الشعبية ، بل كان الشعب قد استيقظت فيه بتلك الدماء وحوش ضارية كانت نائمة في اعماقه ، فاندفعت تطلب المزيد من الدم ، لا تقيم وزنا لقيم الشرف ، او الوعود ، او احترام العواطف والعدل والحق والرحمة وهي تلك القيم التي صور انبياء الثورة الحرية رافلة في اثوابها النظيفة الجميلة .

كلا . لم تكن الحرية في الحركة الثورية عملا انسانيا مجيدا ، بل تفاعلا عصبيا دمويا خليقا ان يفزع له الانسان الكريم ، وان يقشعر منه المرء ذو الحساسة والقلب .

فلا عجب ان نرى بيو وبيتو وقد اشتركا في امجاد التحرير وقد اخذا يستشعران المرارة في الاسابيع التالية . فقد فاضت الكأس بذلك العلقم . وذات صباح قال بيتو الصغير للعم بيو :

ـ يا مسيو بيو ، لقد أوحشتني القرية . وانت ؟

فكان ذلك السؤال هو الشرارة التي اوقدت في نفس ذلك الفلاح الشهم عواطف الانفة والغيرة على الفضيلة والشرف ، فشعر بالاشمئزاز الشديد من ذلك الاتجاه الجديد الذي اتجهته الثورة ، تلك التي صدق عليها فيما بعد انها ارتكبت افظع المظالم باسم الحرية .

فالتفت الرجل وقال لبيتو في حرارة : ـ الحق معك !

ثم قر رايه على ان يذهب فورا لمقابلة الدكتور جيلبير .

***

وكان جيلبير قد استقر به المطاف في فرساي ، وقد ترك العمل في القصر وصار اليد اليمنى للبارون دي نكار الذي استدعاه الملك لتولي الوزارة من جديد . وكانت خطة نكار تقوم على تنظيم الملكية ، فلم يفلح بذلك الا في تعميم الفقر بدلا من زيادة نطاق الرخاء والغنى .

وادخل الفلاحان الى مكتب الدكتور بالوزارة . فابتدره بيو قائلا :

ـ يا دكتور . لقد ازمعت العودة الى المزرعة .

ـ ولماذا العجلة ؟ ـ لاني اكره باريس .

فقال جيلبير ببرود :

ـ فهمت . لقد نال منك التعب بسرعة .. الم تعد تحب الثورة ؟

ـ بل اتمنى ان ارى نهايتها .
فابتسم جيلبير في اسى وقال :
ـ ولكنها لا تزال في بدايتها . ـ دي !
ـ أيدهشك هذا يا بيو ؟
ـ بل أدهش ما يدهشني هدؤك التام .
ـ وهل تعلم يا صديقي متى اكون هادئا ؟
ـ حينما تكون مقتنعا تمام الاقتناع .
ـ اصبت . وهل تعرف موضوع اقتناعي الان ؟
ـ اعتقادك ان كل شيء سينتهي على ما يرام .
فابتسم جيلبير ابتسامة حزينة مرة وقال :
ـ بالعكس . بل ان كل شيء سينتهي اسوا نهاية .
فصاح بيو دهشة ، اما بيتو ففغر عينيه وفمه .
ـ لنسمع ما لديك . اذ يخيل الي انني لا افهم مرادك .
ـ اجلس اذن يا بيو قريبا مني . اقترب اكثر من هذا حتى لا يسمعني احد سواك فالامر جد خطير .
فتحرك بيتو نحو الباب لانه ظن الدكتور يريد منه ان ينسحب ، بيد ان الدكتور دعاه الى الاقتراب ليسمع هو ايضا ، فجلس على الارض بين قدمي بيو . وشرع الدكتور يتكلم همسا :
ـ هل ترى يا بيو ماذا أصنع الان ؟
ـ اراك تكتب سطورا .
ـ ولكن هل تعرف معناها يا بيو ؟
ـ وكيف تريدني ان اعرف معناها وانا اجهل القراءة !
فرفع بيتو راسه فوق مستوى المكتب ونظر في الورقة ثم قال :
ـ انها أرقام .
ـ هذا صحيح . وهذه الارقام فيها خلاص فرنسا او خرابها . لانها حينما تذاع ستطالب كل فرنسي ساكن كوخ كان او رب قصر ان يدفع ربع دخله ضريبة للدولة . فاذا كانت الشعوب تقوم بالثورات فيجب عليها ان تتحمل تكاليفها .
ـ هذا عدل . يجب على كل واحد ان يدفع .
ـ انت رجل شهم شجاع . ولكن هناك غيرك كثيرون سيأبون الدفع لانهم غير مؤمنين بالثورة . فماذا سيفعل هؤلاء ؟
ـ سيقاومون بالطبع . ـ اذن سينشأ عن ذلك إشكال .

ـ ولكن الراي للاغلبية يا دكتور ، ويجب ان تنفذ ارادتها .

ـ اذن سيكون هناك احتكاك وتناحر .

فلمعت عينا بيو ببريق الذكاء والفهم ، فقال جيلبير :

ـ انا اعلم ما توشك ان تقول . فان النبلاء ورجال الكنيسة يملكون كل شيء . اليس كذلك ؟

ـ لا شك في ذلك . فالاديرة حافلة بالكنوز .

ـ والنبلاء لا يدفعون من الضرائب ما يتناسب مع دخلهم .

ـ وانا الفلاح ادفع ضعف مجموع الضرائب التي يؤديها جيراني الاخوة دي شارني الثلاثة مع ان دخلهم مجتمعين مائتا الف جنيه سنويا .

ـ ولكن هل تظن يا بيو ان النبلاء والقسوس اقل وطنية منك ؟

ـ لا شك . فهم يتمتعون بامتيازات من دوننا .

ـ تمهل قليلا فبعد قليل سيكونون اكثر وطنية منك .

ـ وحق قرون الشيطان هذا راي لا اوافق عليه .

ـ من اجل الامتيازات اليس كذلك ؟ اذن فاعلم انه بعد ثلاثة ايام سيكون اكثر الناس امتيازا في فرنسا هم الذين لا يملكون شيئا على الاطلاق .

ـ وكيف كان ذلك ؟

ـ اصغ الي يا بيو ، ان هؤلاء النبلاء ورجال الدين الذين تتهمهم بالانانية قد بدات تجرفهم حمى الوطنية التي اخذت تجتاح فرنسا . وهم الان مجتمعون للتشاور فيما بينهم ، لانهم يعلمون انهم في مفترق الطرق فهم كقطيع من الاغنام انتهت به الطريق الى خندق ، فالهمام منهم من يجتازه قفزا قبل غيره . وذلك ما سيحدث غدا . وربما الليلة . ومن بعده سيقفز سائر افراد القطيع .

ـ هذا والله كلام غير مفهوم يا مسيو جيلبير .

ـ ومعناه انه لا بد لهم من اعلان نزولهم من تلقاء انفسهم عن امتيازاتهم الاقطاعية جميعها ، ونزولهم عن ممتلكاتهم الواسعة للدولة او لفلاحيهم .

ـ اتعتقد حقا انهم يفعلون ذلك ؟

ـ وماذا سيحدث فعلا .

ـ ما اروع الحرية يومئذ وما اعظم انتصارها !

ـ ان ما يحزنني هو ما كنت افكر فيه عندما دخلتما ، هو ما سيحدث بعد ذلك .

ـ وهل اتحاد طبقات الشعب في كتلة واحدة تعمل للرخاء العام امر يقلق بالك ويسبب لك الكدر والوجوم يا دكتور ؟

ــ هل تظن ان العالم سيترك فرنسا تصنع ذلك ؟ هل سيقف مكتوف اليدين ؟ ان جذوة الحرية كالحريق اذا اتقدت في مكان لم تنحصر فيــه والا خمدت . والدول تعلم هذا . وبيننا وبين انجلترا ثأر قديم منذ ساعدنا امريكا على التحرر من سلطانها . ولهذا فعلينا جميعا واجب لا مفر منه . هو ان نقف متنبهين لدفع الخطر . ولهذا اريدك بجواري يا بيو ولا احب ان تعود الى حقلك في هذا الوقت العصيب .

ــ هل ابقى لأرى اخواني في الانسانية يذبحون بلا عدل ولا رحمة في الطرقات ؟ والله لو بقيت في باريس لاقتلن بيدي اول رجل اراه يهم بقتل انسان على قارعة الطريق !

ــ اراك بدات تفهم منطق الثورة . واتجهت الى ان تكون انت ايضا قاتلا كهؤلاء القتلة الذين اثاروك .

ــ ولكنهم مجرمون وانا على حق .

ــ هل شهدت يوم ذبح دي لوناي ودي لوم وحامية الباستيل ؟

ــ نعم ولن انسى هذا اليوم وامثاله كثير من بعده .

ــ وماذا كان يسمي القتلة هؤلاء الضحايا وهم يذبحونهم ؟

ــ كانوا ينعتونهم بالخونة والانذال .

ــ وانت ايضا ستقتل من ستسميهم خونة وانذالا .

ــ ولكني مصيب وهم مخطئون .

ــ ان منطق الدنيا ولاسيما في عهود الثورات ، ان تكون خائنا اذا قتلوك ، وان تكون بارا اذا قتلتهم ، فوجه الخطأ والصواب ان القاتــل مصيب والقتيل مخطىء .

وسكت بيو لا يدري ما يقول ، فاستطرد جيلبير :

ــ اتدري ما السر في هذا الاتجاه الجديد نحو الاجرام وتدنيس الثورة ؟

ــ لا ادري . وان كنت مذهولا .

ــ انه «بيت» .

ــ ومن هو «بيت» ؟

ــ بيت بن بيت .

ــ ما زدتني به علما الا كقولك حصان ابن حصان .

ــ بيت هذا يا صاحبي هو زعيم المحافظين بين نبلاء بريطانيا ، وهو الذي كان يدعو الى قتال امريكا حتى الموت لانه عدو الحرية المبين . وابنه هو رئيس بريطانيا اليوم تولاها في نحو العشرين من عمره . وسياستــه التي يسير عليها هي السياسة التي مات عليها ابوه . وقصارى القول ان بريطانيا تنفق الاموال الطائلة في فرنسا لبذر بذور الخلاف ، وتوجيــه الثورة الى الاعمال الدموية التي تدنسها وتنفر القلوب الكريمــة منها .

فواجبنا الاول ايها الصديق ان نقف في وجه هذا التيار ، وان ننقذ الثورة من سوء ما يراد بها .

ـ قد فهمت يا دكتور . وثق انني موافق ان اكون حيث تريدني .

فصاح بيتو الذي كان قد اشتاق الى القرية والى كاترين :

ـ وانا ؟ ماذا أصنع ؟

ـ اما انت فتعود الى المزرعة ، لتطمئن اسرة بيو ، وتبين لهم المهمة المقدسة التي يضطلع بها هنا . وعليك ان تاخذ معك سباستيان ابني ، فتسلمه الى الاب فورتيبيه ليتم تاديبه وتهذيبه ، وأرجو ان تكون خير رفيق له في نزهات الخلاء يومي الاحد والخميس .

ـ ومتى امضي ؟ ـ بعد ايام ، عندما اعد سباستيان للرحلة .

الملكة تحارب الثورة

ومن سوء الطالع ان الملكة كانت ترى في الحوادث الماضية جميعا انها امور سطحية عابرة ليست لها جذور عميقة ، فمن السهل القضاء على جميع آثارها اذ أسعفت العزيمة وشدت أزرها القوة . لهذا كان من الضروري في نظرها ان تركز قواها وتجمعها .

ولما كان الباريسيون في المدة الاخيرة قد اندفعوا في التدريب والتجنيد للحرس الوطني فلبسوا حلة الجنود ، كمن يريدون الحرب ، فقد رات ان تريهم كيف تكون الحرب حق الحرب ، يشنها رجالها المتمرسون بفنونها . ولهذا قررت ان تستدعي الى فرساي ثلاث فرق من الفرق الملكية المتعصبة. وكانت اول هذه الفرق فرقة طار لها صيت ذائع في قمع الحركات الثورية حتى كان اسمها وحده مثار الرعب في القلوب . وظنت الملكة ان حضور تلك الفرقة الى فرساي سوف يخيف الباريسيين ويلزمهم حدودهم فلا يتبجحون ولا يتحرشون .

وكان قد نشب خلاف بين الملك والجمعية الوطنية حول الفيتو ، وهو حق الملك في رفض قرارات الجمعية الوطنية . وكان الملك في الشهرين الاخيرين يكافح كفاح المستميت لاسترداد ظلال باهتة من سلطانه الملكي الذي طوحت به الثورة ، وكان يكافح ايضا كفاح المستميت بمعاونة الوزارة وميرابو مكبح جماح التيار الجمهوري الذي كان يزداد كل يوم قوة على قوته حتى ليوشك ان يكتسح الملكية من فرنسا اكتساحا .

وكانت الملكة تجهد نفسها كثيرا في الاهتمام بذلك الموضوع الحساس فلم يجد الملك من كفاحه ومقاومته الا فقده قوته وبقايا شعبيته . امـــا الملكة فقد خرجت من هذه المعركة بكنية جديدة الصقت بها ، تناقلهـــا الشعب على غرابتها وعدم فهمه لها ، وهي «مدام فيتو» وزاد في ذعـــر الملكة ان سوء موقف الملكية قد ترتبت عليه حركة من اخطـر الحركات ، وهي حركة الهجرة فقد سحبت في الشهر الاخير من بلدية باريس ستون الف جواز سفر لستين الفا من اعرق الاسر في المملكة ، غادروا البـــلاد لينضموا الى اصدقائهم في المانيا والنمسا .

ثم الهمها ذلك خاطرا جديدا ، هو تدبير خطة محكمة للهرب ، على ان يحمي ذلك الهرب جيش قوي ، وعلى ان يستمر ذلك الجيش مع الاتباع المخلصين في اذكاء الحرب الاهلية ، وان كانت الملكة تسمي تلك الحرب الاهلية اخماد الثورة وحملة تأديبية ضد المتمردين .

ومن الغريب ان نية الهرب نشرتها الاشاعات في باريس قبل ان تخطر ببال الملكة نفسها ، وذلك بايحاء حركة الهجرة الواسعة التي اقدم عليهـــا النبلاء . ولم تقدر ماري انطوانيت ان الهرب مقضي عليه بالفشل مهما احكم تدبيره ، ما دامت هذه النية قد باتت مكشوفة لاعدائها .

ومع هذا مضت الملكة في خطتها ، فاستدعت فرقة اشتهرت بولائهـــا الشديد وتعصبها للملكية ، وبعدائها وحسن بلائها ضد الثوار . وكانت هذه الفرقة هي «فرقة الفلاندرز» .

وكان لا بد لكي يحدث حضور هذه الفرقة الاثر المطلوب في النفوس ، ان يكون استقبالها في فرساي استقبالا حافلا مشهودا رنانا .

ولهذا جمع الكونت دي تان جميع ضباط الحرس الاهلي ، وضبـــاط الجيش الموجودين في فرساي ، ثم خرج بهم لاستقبال فرقة الفلاندرز .

ودخلت الفرقة فرساي دخولا مهيبا رهيبا ، تتقدمها بطاريات المدفعية وعربات الذخيرة والقنابل . وانضم الى الفرقة جميع النبلاء الشبـــان والفرسان الذين لا ينتمون الى الجيش ، واتخذوا جميعا زيا موحـــدا يتعارفون به ، ثم راحوا يقومون برحلات الى باريس ليظهروا انفسهـــم للجماهير ، منتفخي الاوداج بالكبرياء ، معتزين بسر يربطهم بالملكة ، وان كان سرا معروفا بالتخمين ، وسيعرف عن يقين عند أول احتكاك .

***

وكان من الممكن ان يهرب الملك في ذلك الوقت بالذات دون أن تشعر به باريس ، ولكن نحس طالع الملكة ماري انطوانيت وقف حائلا دون ذلك فقد ثارت مدينة لييج البلجيكية ضد امبراطور النمسا ، فاضطر الامبراطور ان يرسل جيوشه ضد تلك المدينة ، وأن ينشغل عن وضع الحامية اللازمة عند الحدود لتنفيذ خطة ملكة فرنسا .

وتوالت الحوادث سراعا سودا كأنها قطع الليل آخذ بعضها برقاب بعض.

فقد حدث بعد ذلك الاستقبال الرسمي ان فكر ضباط الحرس الملكي في اقامة مادبة عشاء لضباط فرقة الفلاندرز . وحدد لذلك العشاء يوم اول اكتوبر ، ودعيت إليه جميع الشخصيات البارزة في المدينة ، حتى يتم التآخي بين جنود الحرس وجنود الفلاندرز .

ولم يكن من مواد الدستور حائل دون حدوث ذلك التآخي . ثم ان الملك هو القائد الاعلى لقواته ، وقصر فرساي ملكه الخاص فهو حر يستقبل فيه من يشاء متى شاء .

ولكن الملك لم يعلم شيئا عن هذه الترتيبات كلها ، فان جلالته منذ سلم بالامر الواقع لم يعد يهتم بالامور العامة التي تولتها الجمعية الوطنية والوزارة ، وصار يقضي معظم وقته في الصيد وكانت الملكة هي التي وافقت على اقامة حفلة العشاء وحددت مكانها في مسرح القصر وامرت ان تكون الحفلة بالغة حد الفخامة والسخاء .

وفي صباح ذلك اليوم خرج الملك كعادته للصيد ، وانصرفت الملكة الى جناحها الخاص وفي صحبتها أندريه كونتس دي شارني ووصيفتان ، في حين بدأ الفرسان بخيولهم المطهمة وثيابهم المزركشة يتوافدون على القصر، بين عزف الموسيقى ونفخ الابواق ، وملأت الجو منذ الضحى اصوات الضحك والصخب والمرح .

ومضت نصف الساعة الاولى بسلام . الى ان وقف مسيو دي لوزنيان قائد الفلاندرز واقترح شرب اربعة أنخاب . النخب الاول في صحة الملك والنخب الثاني في صحة الملكة والنخب الثالث في صحة ولي العهد والنخب الرابع في صحة الاسرة المالكة .

وشربت الانخاب ، وتعالت في أثر كل منها عاصفة من الهتاف والتصفيق وصلت الى اسماع الجموع المحتشدة امام القصر من الشعب الجائع .

وعندئذ وقف احد الضباط وواتته الجراة وبعد النظر فاقترح نخبا خامسا ، هو نخب الامة !

وسرت همهمة غيظ ودهشة ، ثم ارتفعت عاصفة صاخبة .
ــ كلا كلا !

وهكذا رفض السادة نخب الامة ، وانهالت الاتهامات الجارحة على صاحب ذلك الاقتراح وكأنما كانت هذه هي الشرارة التي كان ينتظرها البارود كي ينفجر . فانطلقت النفوس على سجيتها ، وأديرت أقداح النبيذ حتى تجاوزت الادوار عشرا ، وبدأ بعد ذلك الهرج والمرج ، وتخاطف الاطعمة والحلوى ، كل ذلك مختلطة بهتافات متقاطعة .

ــ عاش الملك . عاشت الملكة .

في حماسة شديدة كان يسر لها خاطر الملكة ولا شك .

وتذكر بعض الحاضرين من رجال الحاشية انه كان يسر الملك والملكة لو حضرا ذلك الحفل ، فأسرعوا اليها في جناحها الخاص يبالغون في مظاهر الولاء التي بدت من جنود الفلاندرز البواسل ، فبرقت عينا الملكة ببريق السرور ، وانتعش لديها الامل ، ولكنها اعتذرت لغياب الملك عن الحضور. فالحوا عليها مقترحين أن تصحب معها ولي العهد .

وفي هذه اللحظة حضر الخدم يعلنون عودة الملك من الصيد . فاسرعت الملكة تعدو نحوه فرحة وجذبته من يده جذبا ، ونزلا الى قاعة الحفلة وولي عهدها في يسراها .

واتقدت الحماسة التي أفلتت زمامها ، فتحرر الحاضرون من كل قيد. فانتهز الملك والملكة فرصة عزف قطعة موسيقية وانسحبا مع ولي العهد ، في وسط هتافات حماسية موجهة ضد مبادىء الثورة .

وعن للكونت دي تان أن يأمر بعزف نوبة هجوم .

هجوم ضد من ؟

ضد العدو الغائب . ضد العدو المفهوم المعلوم . ضد الشعب . ثم نزع الجنود شارات الثورة من قبعات كبار الحاضرين من المدعوين وداسوها بالاقدام ، ووضعوا بدلا منها الشارة السوداء .

وسرعان ما سرى هذا الخبر بين الجماهير في الخارج ، فكان له اسوأ الاثر ، وأذكى روح العدوان والكراهية .

اما الملكة فقالت لزوجها :

ــ ارأيت ؟ هذه هي روح جنودك الحقيقية ، وانت مع هذا تستسلم وتتخاذل .

وعندما حضر وفد من الفرقة في اليوم التالي لشكر الملكة ، حيتهم واثنت عليهم قائلة تلك العبارة التي لم ينسها الشعب لها :

ـ لقد اثلجت صدري افعالكم بالامس .

مجاعة باريس

افلت الزمام اذن وتميز المعسكران :
معسكر الملكة في جانب ، ومعسكر الامة والشعب في جانب اخر .
وانطلق البلاط يتقول ويهاجم في شجاعة أماني الشعب وشعوره .
اما في باريس فقد نشأت بين الجمهور طائفة من الفرسان المتجولين يطوفون الشوارع والطرقات للهجوم على البلاط .
وكان فرسان الشعب يتجولون على اقدامهم لا فوق صهوات الجياد المطهمة ولباسهم أسمال ممزقة لا حلل الزرد ودروع الحديد ، وأسلحتهم لسان حاد ، وطلقات من الهجاء .
ولكن كان هناك شيء افعل من هجمات الفرسان النبلاء في فرساي ، وحملات الفرسان المتجولين من فقراء باريس . كان هناك جيش الجنرال «تخمة» في فرساي ، وجيش الجنرال «حرمان» في باريس .
ففي فرساي كان النبيذ وكانت اطايب الطعام والفطائر واللحوم والفاكهة تداس من كثرتها بالاقدام وتراق على الارض وعلى اغطية الموائد .
اما في باريس فكانت ازمة الازمات ان يصبح الناس كل يوم فلا يعلمون هل يجدون كفايتهم من الخبز القفار او لا يجدون . فالمخابز لا تجد كفايتها من الدقيق . ومخازن الدقيق تقفل ابوابها معظم الايام ، فوصلت بذلك عوامل التمرد والسخط الى كل بطن خاوية وأمعاء ضاوية . ونزلت الثورة من برج العقل العلوي الى ساحة المعدة ، وهبطت من أشواق القلب وعقائد الروح الى حاجات الجسد ومطالب القوت . وهبطت تبعا لذلك من العليا المستنيرين الى السوقة الاوباش ، واتسع محيطها من مركز الدائرة حتى شملت النساء والفتيات ، بعد ان كانت هم الرجال في الغالب الاعم .
وهكذا اصبح الناس ذات يوم فوجدوا شبح المجاعة الاغبر يدق ابواب باريس ثم يدخلها ويطوف احياءها ملقيا جذوات من النار في كل بطن يمر بها من بطون الصغار والكبار ، وان للمجاعة لشبحا كالح السحنة لا ينام الا بعد مشقة ، ولكن ما ايسر ان يصحو عند اقل دعوة وأهون اثارة . فاذا صحا لم يغمض له جفن ، ولم تهدأ له قدم ، حتى يحدث امرا جللا .

واكبر قوات المجاعة هي حواء . فانها تتحرك عند الجوع ، فـــاذا تحركت تحرك لها كل انسان في محيطها من الطفل الى الشيخ ومن الغلام الى الكهل ، فان المراة قد تعود منها الناس ان تتغلب فتصبر وتصابر . فاذا ما ثارت تلك الصابرة المصابرة ، فذلك هو الويل والثبور وعظائـــم الامور، تتحرك لثورتها النخوة، وتستيقظ ليقظتها غرائز الحمية والرحمة.

وقد استيقظت المجاعة في باريس ، وايقظت في مسيرها الطويل بين طرقات باريس فتنة حواء .

وفي صبيحة يوم من أوائل اكتوبر كان جيلبير وبيو جالسين في مقهى فوي قرب القصر الملكي . وعلى حين غرة فتحت ابواب المقهى ودخلت منها امراة مشعثة الشعر مستثارة الحس ، فوقفت في الناس خطيبة بلغتها السوقية .

وأدرك جيلبير معنى هذه الظاهرة ، فالتفت الى بيو قائلا :

ــ الى دار البلدية !

واندفع الرجلان فاخترقا اقرب الطرق ، فلما وصلا الى شارع القديس اونوريه ، قرب سوق الدقيق، التقيا بفتاة شابة قادمة من شارع بوردونيه وقد علقت في صدرها طبلا كبيرا راحت تقرعه قرعا منتظما مثيرا .

ووقف جيلبير مذهولا : ــ ما معنى هذا بحق السماء ؟

ــ الا ترى يا دكتور بعينيك ؟ هذه فتاة مليحة تدق طبلا ، وتدقه دقا لا باس به وايم الحق . فقال عابر سبيل :

ــ لعلها فقدت شيئا ، فهي تنادي على ما فقدت .

وعاد بيو يقول : ــ ولكني اراها شاحبة الوجه جدا يا دكتور.

ــ سلها اذن عما تريد . فصاح بيو يخاطبها :

ــ يا حسنائي ! لماذا تقرعين هذا الطبل ؟

فاجابته في صوت ضعيف ولكنه اجش :

ــ اني جائعة ! واستأنفت مسيرها تقرع الطبل .

وبهت جيلبير لحظة ثم هتف : ــ لقد غدا الامر خطيرا .

وراح يتابع بنظره عشرات النساء المسكينات اللواتي يسرن في أثـر قارعة الطبل ، شاحبات الوجوه زائغات النظرات ، مترنحات ، فمنهن من لم تذق الطعام منذ ثلاثين ساعة .

ومن بين صفوف هاتيك النساء كانت تنطلـــق بين الحين والحين صرخة محشرجة : ــ الى فرساي ! الى فرساي !

وكن في سيرهن يشرن بايديهن الى كل من يصادفن من النساء فــي

الطرقات او في الشرفات لينضممن اليهن .
ومرت عربة فاخرة فيها سيدتان نبيلتان فاخرجتا راسيهما من العربة وضحكن . فوقفت قارعة الطبل وكفت عن دق طبلها . وامسكت نحو عشرين امراة باعنة الجياد ، ثم هجمن على العربة ففتحنها وارغمن السيدتين على النزول والانضمام الى مظاهرتهن ، فلما ابدتا المقاومة تلقتا الضربات فوق ظهريهما وراسيهما .

***

ومن وراء موكب النساء كان يمشي رجل نحيل طويل يرتدي حلة رمادية وصدارا اسود وقبعة مثلثة. وكان يرقب كل شيء باهتمام شديد. وقد عرف فيه بيو وجيلبير الزعيم مايار الذي كان من اشهر قواد فرق الحرس الوطني ولاسيما في الاحياء الشعبية .
وقد اختفى مايار مع النساء في منعطف الشارع فساورت بيو الرغبة ان يتبع الموكب كما فعل مايار ، بيد ان جيلبير جذبه من ذراعه وارغمه على البقاء بجانبه ثم اتجها الى دار البلدية . وهناك عرفا حقيقة ما يدور في ذلك الوقت بباريس .
وبعد نصف ساعة كانت قد تجمعت وراء قارعة الطبول عشرة الاف امراة في ميدان الاعتصاب ، وهناك عقدن مؤتمرا صاخبا .
ولا غرو فمعظم هاتيك العشرة الاف امراة من البوابات وبائعات الخضر واللحم ومن بائعات الهوى .
وبعد مداولة حامية صدرت المداولات التالية :
«التوجه الى دار البلدية وإحراقها ، لان فيها كمية كبيرة من الاوراق المكتوبة التي لا شك انها سبب رئيسي في منع الطعام والخبز عن باريس».
وبدأ الزحف على دار البلدية . فوقف رجال الحرس الوطني يدافعون عنها ، ولكن النساء هجمن على رجال الحرس وفرقنهم واقتحمن البناء الرئيسي وبدأ السلب والنهب .
وكانت خطتهن قائمة على اخذ كل ما يمكن اخذه . اما ما لا يمكن اخذه فيلقى به في السين تحت نوافذ البلدية .
ومن ضمن ما لا يمكن اخذه الرجال واعضاء البلدية ، لهذا تقرر القائهم في السين واشعال النار في بناء الدار .
ولم يكن ذلك عملا هينا . لان دار البلدية كانت تضم شيئا من كل

شيء . ففيها اولا ثلثمائة نائب ، وفيها مساعدون ، وفيها عمد الاقسام المختلفة .

ولاحظت احدى النساء صعوبة المهمة في تنفيذ القرارات فقالت :

ــ ان القاء كل هؤلاء الرجال في الماء مسالة تستغرق وقتا طويلاً .

فقالت لها اخرى : ــ ولكنهم يستحقون ذلك المصير .

ــ ولكن ليس لدينا وقت كاف نضيعه في شأنهم .

ــ اذن لنفرغ منهم بأسرع وقت .

ــ لم يبق اذن الا ان نحرقهم في الدر دفعة واحدة .

وذهب فريق منهن ليحضر المشاعل ، وليحضر القش اللازم لذلك الحريق . وعندئذ تدخل مايار مستخدما سلطته وسمعته الشعبية في تسكين ثائرة النساء ، ثم خطب فيهن حتى أقنعهن ببراءة وثائق البلدية من تهمة المجاعة . فانصرفن بعد جهد شديد عن احراق البلدية ، ولكن مايار بمكره الشديد وجه انظارهن الى الزحف على فرساي ، حيث الخمر ، والطعام ، وكل ما يلذ الانفس . .

وانتخب النساء مايار جنرالا لذلك الزحف العام !

الزحف الى فرساي

تجاوبت انحاء باريس بأصداء ما حدث من النساء في دار البلدية ، فلما وصل الخبر الى اسماع لافاييت خف الى هناك تاركا العرض العسكري الذي كان يشرف عليه في ساحة مارس . وكان فوق صهوة جواده منذ الثامنة صباحا ، فوصل الى دار البلدية وساعتها تدق الثانية عشرة واستوقفه عند رصيف بيليتي رجل كان يلهب جواده بسرعة شديدة . وكان هذا الرجل هو الدكتور جيلبير الذي كان ذاهبا الى فرساي لينذر الملك بالزيارة غير الودية التي كان مهددا بها من نساء باريس . وأخبر الدكتور جيلبير الماركيز لافاييت بخلاصة ما حدث في كلمتين ، ثم استأنف الركض الى فرساي ، واتجه لافاييت الى دار البلدية.

وكانت الساحة التي تطل عليها دار البلدية قد اخليت من النساء وحل محلهن فيها جمع من الرجال ، هم أفراد الحرس الوطني ، وقد تعالى نفخ الابواق ودق الاجراس لدعوة جميع الاهالي الى حمل السلاح كي

يرافقوا النساء في زحفهم الى فرساي .

وترجل الماركيز لافاييت عن صهوة جواده ، وشق طريقه فـوق درجات السلم دون ان يعير ادنى التفات للهتاف بحياته ، ثم شرع يملي خطابا الى الملك عما حدث ذلك الصباح .

وما وصل في املائه الى السطر السادس حتى انفتح باب سكرتيريته الخاص ، في عنف ، فرفع لافاييت عينيه فقيل له ان وفدا من رجال الحرس الوطني يطلب المقابلة ، فاشار بيده الى ذلك الوفد فدخل الحجرة، وتقدم رئيس الوفد فقال :

ـ سيدي الجنرال . نحن وفد ينوب عن عشر فرق . وليس فينا من يظن بك الخيانة . ولكننا نشعر انه قد غدر بنا وانه قد آن الاوان ان تنتهي هذه الحالة باي شكل من الاشكال . فليس في وسعنا ان نشهر حرابنا في وجه نسائنا اللواتي لا يطلبن شيئا الا الخبز القفار الذي لا يجدنه لاشباع بطونهن ، وبطون اطفالهن ، الذين هم اطفالنا . فلجنـة التموين العليا اما ان تكون خائنة او مقصرة . وهي على الحالين تستحق الالغاء والتبديل . فالشعب يا سيدي الجنرال شقي تعس . وعلة شقائه كامنة في فرساي . فلا مفر من الذهاب الى فرساي واحضار الملـك للاقامة في باريس. ولا بد من تسريح فرقةالفلاندرز والحرس الخصوصي، لانهم تجاسروا على وطء الشارة الوطنية باقدامهم . واذا كان الملك عاجزا عن حمل التاج ، فلينزل عن العرش وسنتوج ابنه مكانه ، وتؤلف الامـة مجلسا موثوقا به للوصاية ، وتمضي الامور في نهجها الطبيعي . هذا يـا سيدي الجنرال ما جئنا لنقوله لك» .

فحدق لافاييت في المتكلم بدهشة شديدة . فقد كانت هذه اول مرة تواجهه فيها انفاس الثورة الحامية شخصيا ، وانه بحكم مولده ونشاته لا يكاد يصدق اذنيه ، فهو لا يتصور ان الشعب يمكن ان يستغني عن الملك. بحال من الاحوال ، فصرخ في وجه محدثه :

ـ ماذا تقول ! هل صحت عزيمتكم اذن على ان تحاربوا الملك وتجبروه على التخلي عنا ؟

ـ سيدي الجنرال . اننا نحب الملك ونحترمه . ولن يكون احد اشد منا حزنا ان هو تركنا ، لاننا ندين له بالشيء الكثير . ولكن اذا آثر جلالته ان يتخلى عنا ويفارقنا ، فعزاؤنا ان لدينا ولي العهد .

ـ ايها السادة ! ايها السادة ! حذار مما انتم مقدمون عليه . فانتـم تهاجمون التاج . وواجبي الا اسمح بذلك على الاطلاق .

فانحنى رئيس الوفد ثم قال بهدوء :

ـ سيدي الجنرال . اننا جميعا على استعداد ان نبذل اخر قطرة من دمنا في سبيلك ، ولكن الشعب شقي تعس . ومصدر شقائه في فرساي، فيجب أن نذهب الى فرساي ونحضر الملك الى باريس . فهــــذه ارادة الشعب . والامة مصدر جميع السلطات .

فشعر لافاييت انه لا بد له من التضحية بشعوره الخاص ، وهو رجل شجاع لم يتأخر يوما في بذل تلك التضحية . فنزل حتى توسط الميدان، وهم ان يخطب في الناس ، ولكن صيحاتهم : «الى فرساي ! الى فرساي!» طغت على صوته واغرقته ، وشعر انه بعيدا عن صهوة جواده غارقا فــي ذلك المحيط البشري ، فراح يشق طريقه بين الناس ليصل الى جواده ، كما يسبح الغريق ليبلغ صخرة النجاة .

وبشق النفس وصل الى جواده وقفز فوق صهوته ، وحاول ان يتجه به نحو مدخل البلدية ، ولكن السور البشري حال دون ذلــــك وصاحت الجماهير به :

ـ يجب ان تبقى معنا يا جنرال ! الى فرساي ! الى فرساي !

فتردد لافاييت لحظة ، لانه خيل اليه ان ذهابه معهم الى فرساي قد يفيد الملك بكبح جماحهم . ولكن هل يتيسر له ذلك وهو يراهم ثائريــن الى هذا الحد ؟

***

وفي هذه اللحظة هبط درجات سلم البلدية شخص قوي العضل راح يشق الطريق حتى وصل الى لافاييت فقال له :

ـ هذه رسالة من نواب باريس الثلاثمائة .

وكان هذا الرسول هو بيو .

ففض لافاييت الرسالة على عجل وشرع يقرؤها ولكن صيحات الناس مطالبين بسماع ما في الخطاب حملته على قراءته بصوت عال ، وقد خيم الصمت التام وارهفت الاسماع .

ـ بناء على ظروف الحالة ، ورغبة الشعب ، وبناء على ما ابــداه القائد العام للحرس الوطني الجنرال لافاييت من رغبة لا يمكن رفضها ،

قرر نواب باريس المجتمعون في دار البلدية تفويض القائد العام الجنرال لافاييت في الزحف الى فرساي ، وسيصحبه اربعة مندوبين من نـواب المناطق منهم نائب فرساي .

وكان لافاييت المسكين لم يقدم اي طلب الى اللجنة ، ولكنه بات محرجا بعد ان هتف الشعب بحياته لما ورد في الخطاب من انه صاحب ذلك الطلب. وبين الهتاف العالي له ، اعلن لافاييت بداية الزحف الى فرساي .

***

وكانت فرساي في هذه الاثناء تجهل كالعادة كل ما يجري في باريس، وكانت الملكة جالسة خلية البال في جناحها الخاص تمني النفس بقـرب الانتقام ليوم سقوط الباستيل . وعلى حين غرة دخل عليها احد ضباط الحاشية قائلا :

ــ مولاتي . لقد حضر الدكتور جيلبير للتحدث الى جلالة الملك فـي امور مهمة عاجلة ، فلما وجد جلالته قد رحل الى غابة ميدون للصيد منذ ساعة طلب شرف المثول بين يدي جلالتك .

ــ دعه يدخل .

وبعد لحظة واحدة ظهر جيلبير في عتبة الباب ثم تقدم نحو الملكـة باحترام شديد قائلا :

ــ هل تسمح لي جلالة الملكة في غياب زوجها المعظم ان انهى الـى اسماعها الموقرة الاخبار التي جئت احملها من باريس ؟

ــ تكلم يا سيدي . فاني حين رايت اسراعك في القدوم استنجدت بشجاعتي كلها وتجلدي ، لانني قدرت انك تحمل الينا انباء هائلة .

ــ مولاتي ان عشرة الاف امراة من نساء باريس قد بدان الزحف الى فرساي حاملات السلاح .

فصاحت الملكة في ازدراء :

ــ عشرة الاف امراة ؟.. امراة ؟!

ــ نعم يا مولاتي . وان كنت اعتقد انهن توقفن في الطريق ببعـض الضواحي ، ولهذا ارجح ان عددهن عند وصولهن قد يصل الى عشرين الفا.

ــ وما سبب حضورهن ؟

ــ انهن جائعات يا مولاتي ، فقد جئن يسألن ملكهن الخبز .
ــ وما العمل ؟
ــ يجب قبل كل شيء ان يحاط الملك علما بالامر .
ــ الملك ؟ واي جدوى في تعريضه لمثل ذلك اللقاء ؟
وهنا تدخل احد رجال الحاشية المقربين قائلا :
ــ مولاتي ان مسيو جيلبير على حق . فالملك لا يزال محبوبا جدا . وسيقابل الملك هاتيك النسوة فيستل الغضب من نفوسهن .
ــ ولكن من الذي يتولى مهمة ابلاغ النبا الى الملك ؟ فالطريق الى ميدون لا بد انه قطع الان او سدته هذه الجموع . فالذهاب الى ميدون لا يخلو من خطر . فقال رجل الحاشية على الفور :
ــ اسمحي لي يا مولاتي ان انتدب نفسي لهذه المهمة .
ولم ينتظر الكونت اذن الملكة ، بل أسرع ذاهبا .
وما كاد يختفي عن الانظار حتى بدات اصداء ضجة زحف النساء تصل الى فرساي من بعيد . وفي الوقت نفسه ابرقت السماء وارعدت ثم اخذت تمطر . ومع ذلك توالت الاخبار عن الكتل الكثيفة الزاحفة الى فرساي . فماذا كان صدى هذا الزحف ؟
ان جنود الحرس الخصوصي وفرقة الفلاندرز تبادلوا النظرات ، ثم تناولوا السلاح وشرعوا يتاهبون . ولكن في شيء من التردد ، فماذا عساهم يصنعون لنساء خرجن من مدينتهن مسلحات ثائرات ، ولكن الجوع ومشقة الطريق القيا من ايديهن الناعمة السلاح بل لا تكاد الواحدة تقوى على الوقوف على قدميها ؟
ومع هذا راح هؤلاء الجنود ينظمون انفسهم في صفوف وتشكيلات ويستلون سيوفهم من اغمادها .
واخيرا بدات طلائع النساء تدخل فرساي وهن يجررن اقدامهن من فرط التعب والاعياء ، وقد ترك ثلاثة ارباعهن اسلحتهن ملقاة على جانب الطريق وقد عجزن عن مواصلة حملها . اما الربع الباقي فقد حملهن مايار قائد الحملة على ترك السلاح في اول بيت صادفنه في فرساي ، ثم جعلهن ينشدن للاعلان عن نواياهن السلمية نشيد الملكية العتيد «عاش هنري الرابع» فرحن ينشدنه باصوات خافتة مرتعشة لا تستطيع لضعفها ان ترتفع ولو بطلب الخبز ، ولكن هذه الاصوات تتحامل على نفسها لتغني نشيد الملكية !
وما اعظم الدهشة التي ثارت في القصر حين رأين ذلك الجيش

الزاحف لا يهدد ولا يتوعد وانما يغني النشيد الملكي ، وقد اختلطت على وجوههن قطرات المطر بتراب الطريق ، فرحن يترنحن كالسكارى وما هن بسكارى ، وانما هي سكرة الجوع والتعب .

والحق ان منظرهن كان قابضا للقلوب مثيرا للاشفاق ، لهذا شعر الحراس المدافعون بالاكتئاب والرحمة ، فتخاذلت ايديهم عن مقابض سيوفهم .

اما الملكة فامرت باعلان حالة الطوارىء والحصار الى حين حضور الملك ، والتف حولها كبار العسكريين والنبلاء بمثابة حرس شخصي لها .

وفي هذه اللحظة وصل الملك مسرعا من غابة ميدون . فسمع من جهة ميدان السلاح ضجة شديدة ، فسأل عن علتها مرتاعا فقال له جيلبير :

ــ ان احد رجال حاشيتك يا مولاي قاد فريقا من الحرس فهاجموا رئيس الجمعية الوطنية وهيئة وفدها ، وكانوا في طريقهم الى القصر ليلتمسوا مقابلتكم .

فغضب الملك غضبا شديدا وأمر من فوره بفتح ابواب القصر لكل انسان ، فلما صرخت الملكة معترضة ، صاح في وجهها :

ــ فلتفتح جميع الابواب . فانما قصور الملوك قد جعلت لتكون ملاذا للرعية عند اليأس . افتحوا جميع الابواب .

ودخل وفد الجمعية وعلى رأسه مونييه . ومعه وفد النساء الجائعات وعلى رأسه قارعة الطبل ، بائعة الزهور الحسناء «مارلين شمبري» .

وقال مونييه كلمة مقتضبة قدم بها بائعة الزهور الشابة التي تقدمت خطوتين ثم فتحت فمها لتتكلم ، فلم تستطع الا كلمتين اثنتين :

ــ مولاي !.. الخبز !

ثم سقطت مغشيا عليها على الارض. فأسرع الملك يطلب النجدة وحملها بنفسه بين ذراعيه . ثم تناول من أندريه دي شارتيبه زجاجة الاملاح المنعشة وراح يفيقها بيديه ، فلما تنبهت ووجدت نفسها على هذه الحالة صرخت خجلا ، وانكفأت على يده تريد ان تقبلها فقال :

ــ يا للبنية المليحة ! دعيني اقبلك ، فانت لعمري اهل لذلك ..

ــ مولاي ! مولاي! ما دمت رحيما رقيقا الى هذا الحد، فاصدر امرك.

ــ اي أمر تريدين ؟

ــ ان يرسلوا الدقيق الى باريس حتى تنتهي المجاعة .

ــ ساوقع هذا الامر حالا . وان كنت اخشى انه لن يجدي .

وجلس الملك ليوقع الامر ، واذا طلقات رصاص متتابعة ، فريع الملك

وارسل جيلبير يستفسر ، فاذا فرد بين الجماهير من الرجال قد اطلق رصاصة اصابت ذراع ضابط في الحرس الخاص ، في الوقت الـــذي كانت فيه تلك الذراع مرفوعة لتضرب جنديا شابا حمى بجسمه امراة من المتظاهرات كان يريد ذلك الضابط ان يركلها ، واجابت الحامية على تلك الرصاصة برصاصات ، فقتلت امراة وجرحت اخرى جرحـــا خطيرا ، وثارت الخواطر فصرع فارسان من فرسان الحرس .

وفي هذه اللحظة وصل الحرس الوطني بقيادة لافاييت . في الوقت الذي انشغل الغوغاء فيه عن القتال بتمزيق جوادي الفارسين ، والسعيد من فاز بقطعة من لحمهما !

وفي هذه الاثناء كان الملك قد وقع بناء على طلب الجمعية الوطنية امرا اخر ، هو الذي خلده التاريخ تحت اسم «اعلان حقوق الانسان» .

ودخل لافاييت على الملك واختلى به لحظة . وفي تلك الاثناء هجم على بعض ابواب القصر ستمائة رجل ، غير مبالين بتحذيرات الحراس الواقفين عند باب البناء ، فاطلق الحراس النار . فحمل الماجمون قتيلهم وانسحبوا ولكن ليعودوا فريقين ، يهاجم احدهما جناح الملك ، ويهاجم الاخر جناح الملكة .

اما الفريق الذي هاجم جناح الملك فحـــاول الحارس ان يمنعـــــه فاكتسحوه ، ثم اقتحموا باب الغرفة وكان الملك قد غادر الغرفة على كره منه الى غرفة داخلية ، الى ان تدخل الحرس الوطني في الوقت المناسب بقيادة لافاييت شخصيا الذي تصدى للصف الاول من المهاجمين ، وبتاثير شخصيته ومكانته انقذ حياة الملك والملكة . ثم زاد على ذلك ان صحب الملكة الى الشرفة فاطلت على الجماهير وقبل يدها على مراى منهم فتعالى هتافهم بحياة لافاييت وحياة الملك والملكة ، لانه كان قد اعلن ان الملك اقر حقوق الانسان وقرر الانتقال بأسرته الى باريس ، ليشارك شعبــــه آلام المجاعة الى ان تنقضي .

***

لقد كانت هدنة في الظاهر ، فلم يفت نظر جيلبير الثاقب ان نهايـــة الملكية قد اقتربت برغم هذا التحسن الظاهري ، فبعث في اليوم التالي بولده في صحبة بيتو الى الريف ، بعيدا عن نار الثورة ، وظل هو مع بيو محاولا انقاذ الملكية وانقاذ فرنسا وانقاذ الثورة .

ولكن منطق الحوادث كان أمضى من منطقه ، فقد اندلعت الثورة حتى شملت الريف ، وتأججت في باريس حتى اتت على الملكية ثم على الملـــك والملكة ، وعلى الفســاد والمفســدين .

تمت

روائع القصص العالمية

ذهب مع الريح	مرغريت ميتشل
البؤساء	فيكتور هيغو
عاصفة وقلب	〃 〃
أحدب نوتردام	〃 〃
أوليفر تويست	شارل ديكنز
دافيد كوبرفيلد	〃 〃
قصة مدينتين	〃 〃
أنا كرنينا	ليو تولستوي
الحرب والسلام	〃 〃
بائعة الخبز	كزافيه دي مونتبان
جين اير	شارلوت برنتي
لمن تقرع الأجراس	ارنست همنغواي
الجريمة والعقاب	فيدور دوستوفسكي
أيفنهو	سيرولتر سكوت
مرتفعات ويذرنغ	اميل برنتي
مدام بوفاري	جوستاف فلوبير
قصة حب	اريك سيغال
الأرض الطيبة	بيرل باك
رسائل من طاحونتي	الفونس دوديه
٨٠ يوم حول العالم	جيل فرن
من الأرض الى القمر	〃 〃

المكتبة الحديثة للطباعة والنشر
بيروت - شارع سوريا - تلفون: ٢٣١١٦٨